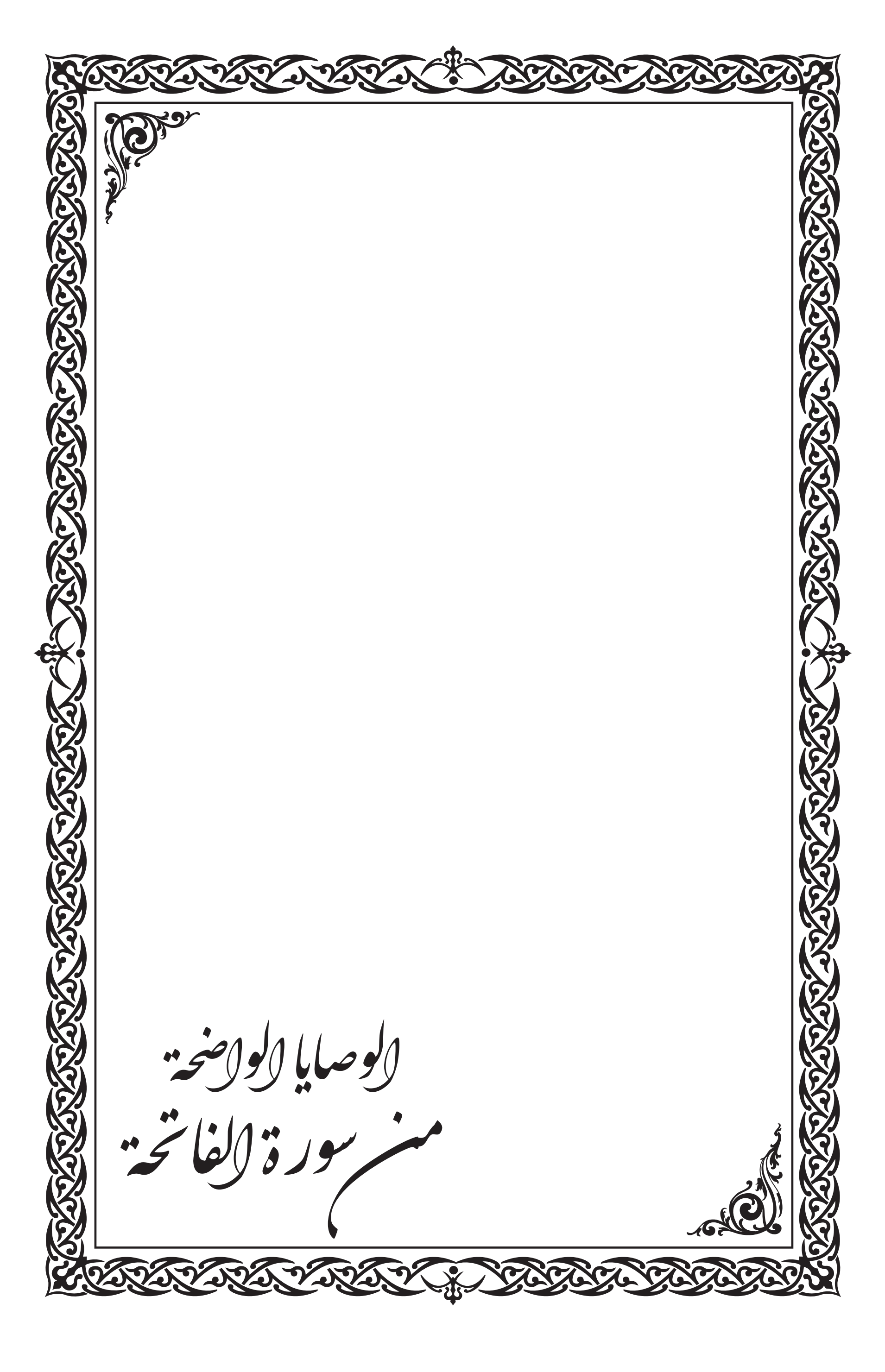


الوصايا الواضحة من سورة الفاتحة



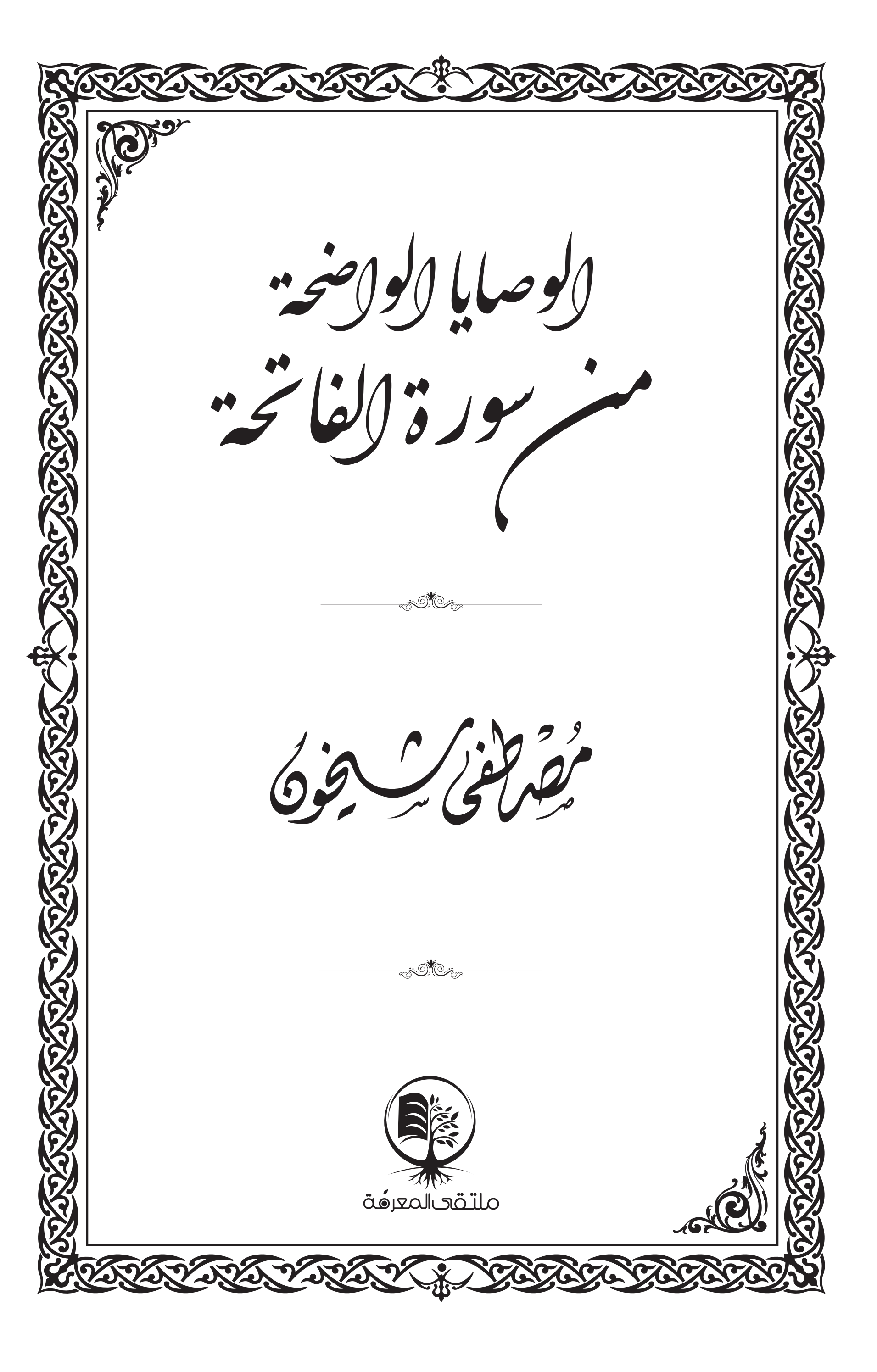
ردمك: 978-977-6682-27-6

رقم الإيداع القانوني: 2019/25454



جوال: 00201278821670 / 00201003528058

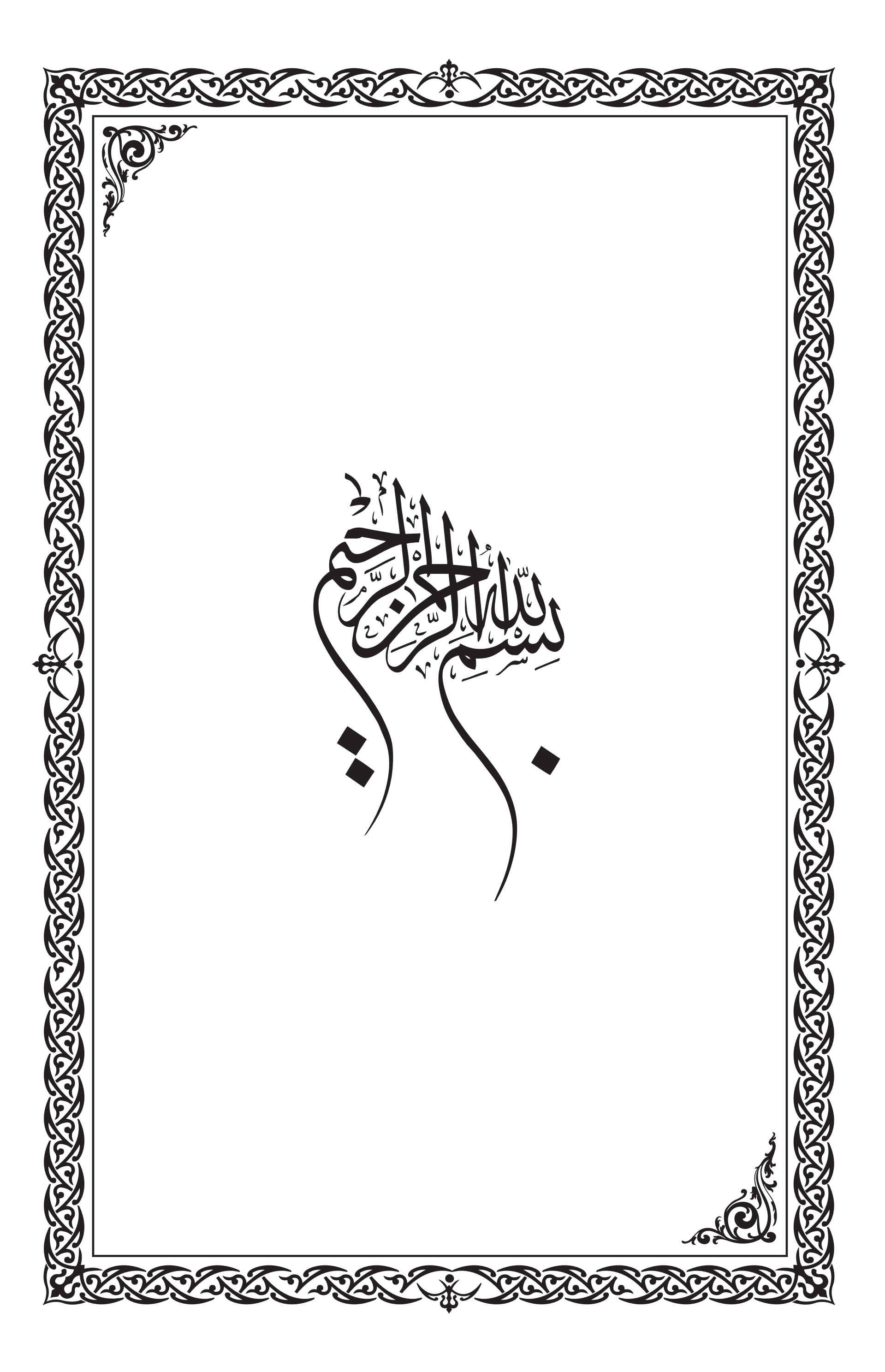
المراجعة اللغوية والإخراج الفني وتصميم الغلاف: فريق العمل بدار ملتقى المعرفة للنشر والتوزيع



الوصايا الواضحة من سورة الفاتحة

مصطفى شيخون

ملتقى المعرفة



بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدمَةٌ
رَبِّ يَسِّرْ وَأَعِنْ يَا كَرِيمُ

الحمدُ لله الذي هدَانا للإسلام، ومَنَّ علينَا بالإيمان، وأنْزَلَ فينا القرآنَ، وجعلنا مِنْ خيرِ أمَّةٍ أُخرِجَتْ للأنَام، تأمُرُ بالمعروفِ وتنهى عن الآثام، وأشهدُ ألَّا إله إلَّا اللهُ وحدَه لا شريك له، المَلِكُ الحقُّ العلَّام، الرَّحيمُ الرحمن، خَلقَ مِن كُلِّ شيءٍ زوجَيْنِ؛ فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تُكذِّبان، نسألُه جَلَّوَعَلَا أن يُثبتَنا على الحقِّ والإيمان، ونعُوذُ به سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مِن فتنة المَالِ والجاهِ والسُّلطَان، ونستَنصِرُ به على الظُّلمِ والبَغي والعُدوان، ونتوجَّهُ إليه خاشعينَ صادقينَ أنْ يَمُنَّ علينا بخاتِمَةِ الإحسَان، وأشْهَدُ أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسُولُه وصَفيه مِن خلقِه وحبيبُه وخليلُه، عليه مِن ربِّه أفضلُ الصَّلواتِ وأتمُّ السَّلام، وعلى آله وأصحَابِه وأزواجِه البَرَرَةِ الكِرَام، وعلى مَن استَنَّ بسُنَّتِهِم واهتدَى بهديِهِم وعلى شرعِهم اسْتقَام، جَعلنَا اللهُ وإيَّاكم مِمَّنْ على شرعِه استقَام؛ آمين.

وبَعدُ:

بدايةٌ لا بُدَّ مِنْهَا:

مِن أينَ أبدأُ؟ وكيفَ أبدأُ؟ وأنا أجِدُني أمَام بحرٍ لا ساحِلَ له، أمام بحرٍ قد حَوى دُرَرًا، بحرٌ تَجِدُ في أعمَاقِه اليَواقيتَ والذَّهَبَ واللآلِئَ، أجدُني أمَامَ (**بحر القرآن**) لا أستطيعُ مِن أيِّ كنوزِه أغترف، فالقرآنُ الكريمُ يُقبِلُ عليه الظمآنُ فيرتوي، ويُقبِلُ عليه الحيرانُ فيهتدي، ويُقبِلُ عليه المريضُ فيشفَى، ويُقبِلُ عليه الحزينُ فيسْعَد، ويُقبِلُ عليه الجاهلُ فيعلَم ويتعلَّم، فالكُلُّ يجدُ فيه بُغيتَه وسَلوتَه وخلوتَه وسعادتَه؛ فهو يَسعُ الجميع، ويروي الجميع، ويهدي الجميع، ويُسعِدُ الجميع، فلا بُدَّ أن نُقبِلَ على بحر القرآن الكريم لِنغترف مِن لآلِئِه وكنوزِه، فهو ﴿قُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾، يُكرِمُ مَن يُقبِل عليه بصدق، ويستفيد منه كلُّ الخلق؛ الجاهل والعالم والطبيب والمهندس والفقيه والمُربي، فالقرآن جاء ليستفيد منه جميعُ النَّاس بمُختلَف أعمارهم وأعمالهم وأجناسهم، كُلٌّ حسْب استعدادِه ومدى إقباله وقُربه مِن هذا النُّور المُبين.

إنَّ القرآنَ نورٌ يُنيرُ اللهُ به الروحَ والقلبَ والحياة، فلا بُدَّ أن يكون لنا نصيبٌ مِن هذا النُّور، أمَّا الذين يقِفُونَ خلفَ حُجُبِ أهوائِهم فلنْ ينتفِعوا بهذا النُّور، ما دام الواحدُ منهم لم يخرُج مِن حِجَابِ نفسِه المُظلِم، وطالمَا أنَّه مُبتلى بالأهواءِ النفسيةِ والأمراضِ

القلبيَّـة، وطالـمَا أنَّه مُبتلى بالظُّلماتِ التي أظلمتْ نفسَـه، وأظلمتْ قلبَه، وأظلمتْ عليه حياتَه، وتلك الظُّلماتُ التي تُحيط به؛ لا تجعلُه مؤهلًا أو مُستعِدًا لانعكاس هذا النُّورِ الربَّانيِّ في قلبِه.

إنَّ اللـه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ -رحمـةً بعبَـادِه- أنـزَلَ لهـم هـذا الكتـاب لسعادتِهم وهدايتِهم، لأنَّ جوهَرَ الرسَائلِ الربَّانيِّةِ والكتُبِ السَّمَاويَّة لجميـعِ البشـريَّة مِـن أوَّلِ آدمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى قِيَامِ السَّـاعة؛ هو هدايةُ النَّـاس إلى الله، وإلى صِراطِه المُسـتقِيم، وإخراجُهم مِن الظُّلمات إلى النُّور.

قـال ربِّـي جَلَّ وَعَلَا: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞ ﴾ [المائدة: ٤٤].

وقـال اللـهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ ﴾ [المائدة: ٤٦].

وقـال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [إبراهيم: ١].





ضَرُورَةُ فَهْمِ وتَدَبُّرِ القُرآنِ
(محاولة فهم أم تفسير)!

أولًا: هُنَاك فرقٌ شَاسِعٌ كبير بين التدبُّر والتفسير:

إنَّ تفسيرَ القرآنِ العظيم ليس مِن المَهام التي يستطيع أمثالُنا أداء حقِّها، بل لا بُدَّ مِن علماء متخصصين، أحاطوا علمًا بأدواتِ التفسير وعلومِه، مِن معرفة (علم اللغة والنحو والصرف والاشتقاق والمعاني والبيان والبديع والقراءات وأصول الدين وأصول الفقه وأسباب النزول والقصص والناسخ والمنسوخ والفقه والأحاديث المُبيِّنة لتفسير المُجمل والمُبهَم،... إلخ)، فلا ينبغي للذين لم يصلوا بَعدُ إلى المستوى العالي مِن النُّضج العلمي، أن يدخلوا مِضمار التفسير، فلا ينبغي للشباب -غير المُطَّلِع على هذه الأدوات والمسائل والأصول- اقتحام ميدان تفسير القرآن العظيم، وإذا حَدَثَ أن دَخَلَ أمثالُ هؤلاءِ وأصبحَ يُفسِّر القرآنَ وفقَ رأيه، فلا ينبغي لشبابِ المسلمين أن يلتفتوا إليهم، أو يقيموا لآرائهم وزنًا، فَعِلمُ التفسير له رجالُه ومتخصِّصوه.

أمّـا التدَبُّـر فقد أمَرَ اللـهُ به كلَّ النَّـاس، فهو فريضـةٌ غائبةٌ عند التـلاوة، فالتلاوةُ تكون لأجل التزكيـة والتعليم، تَعلُّم هذا الكتاب، وتَعلُّـم الحكمة أي: السُّـنَّة التي هي مِن هذا الكتـاب أيضًا ومُكمِّلَةٌ ومُفصِّلَـةٌ لـه، وهدفُ تلاوةِ القرآنِ على البشـر؛ لِيُزكُّوا أنفسَـهم بِه، ويُنقذُوهـا مِـن أوسـاخِ الجاهِليَّـةِ ويُخرجُوها مِن ظُلمَـاتِ الوثنيَّة، حتـى تتمكَّنَ أرواحُهم وقلوبُهم بَعد ذلـك؛ أنْ تَفهَمَ وتَتَدَبَّرَ وتَعمَلَ بالكتاب والحكمة.

فهـل يكفـي أو نكتفـي أن نَضَعَ القـرآنَ في جيوبنـا؟! أو هل يكفـي أو نكتفـي أن نُرَتِّـلَ القرآن أو نسـمع ترتيلَه بصوتٍ حَسَـنٍ ونتلـذَّذ به فقـط؟! كلَّا واللـه، بل هناك هدفٌ أسـمى، نعـم.. إنَّه التدبُّر، فلا بُـدَّ مِن التدبُّر والتفكُّر والتأمُّل في القرآن الكريم الذي هو كلامُ المَلِكِ العظيم، والتدبُّر يؤدي إلى العمل، والعملُ يُفضي بنـا إلى الهدايةِ والصَّلاح، والقرآنُ يدعونا في مواضع عديدة جدًّا إلى ذلك.

قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، فـي هذه الآيـة أوضحَ اللهُ تعالى أنَّ الهدفَ الأسـاس مِـن إنزال القـرآن؛ هـو التدبُّر والتفكُّـر والتذكُّـر، لا مُجرد التلاوة فقط دونَ فهم معاني ما يُتْلى على عِظَمِ أجرِ التلاوة.

وقال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [النساء:٨٢]، ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [محمد:٢٤].

قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يقول الله تعالى آمرًا عبادَه بتدبُّرِ القرآن، وناهيًا لهم عن الإعراضِ عنه وعن تفهُّمِ معانيه المُحكَمَة وألفاظِه البليغة، فهذا أمر صريح بالتدبُّر والأمر يُفيد الوجوب.

وقال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [البقرة: ٧٨]، **قال الشوكاني** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقيل: (الأماني: التلاوة) أي: لا عِلمَ لهم إلَّا مجرَّد التلاوة دونَ تفهُّم وتدبُّر»(١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ذمَّ اللهُ المُحرِّفينَ لكتابِه والأُمِّيِّين الذين لا يعلمون منه إلَّا مجرَّد التلاوة وهي الأماني»(٢).

ويقول السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في تفسيره: ومعنى تدبُّر آياتِ الله:**

«التأمُّل في معانِيه، وتحدِيقُ الفكر فيه، وفي مبادِئه وعواقِبه، ولوازمِ ذلك، فإنَّ تدبُّرَ كتاب الله مِفتاح للعلوم والمعارف، وبه يُستَنتَج كل خير وتُستَخرج منه جميع العلوم، وبه يَزداد الإيمان في القلب وترسخ شجرته، فإنَّه يُعرِّف بالربِّ المعبود، وما له مِن

(١) فتح القدير.
(٢) بدائع التفسير.

صفـاتِ الكمَال؛ وما يُنزَّه عنه مِن سـمات النَّقـص، ويُعرِّف الطريق الموصِّلة إليه وصفة أهلها، وما لهم عند القدُوم عليه، ويُعرِّف العدو الـذي هو العـدو على الحقيقـة، والطريـق الموصِّلة إلـى العذاب، وصفة أهلها، وما لهم عند وجود أسباب العقاب، وكُلما ازداد العبد تأمُّـلًا فيه ازداد علمًا وعمـلًا وبصيرةً، لذلك أمـرَ اللهُ بذلك وحثَّ عليه وأخبر أنَّه هو المقصود بإنزال القرآن».

فالتَدَبُّـر كما قـال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تحدِيـقُ ناظرِ القلب إلى معانِيه، وجَمعُ الفكر على تدبُّرِه وتَعقُّلِه»(١).

وقيل في معناه: «هو التفكُّرُ الشَّامِلُ الواصِلُ إلى أواخرِ دَلالاتِ الكَلِمِ ومَرَامِيه البعيدة»(٢).

ولـذا اعتنـى بـه صَحْـبُ الرسـول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وتابِعوهـم بإحسـان؛ تـلاوةً وحفظًـا وفهمًـا وتدبُّـرًا وعمَـلًا وبَلاغًـا، وعلـى ذلك سَـارَ سـائرُ السـلف الصالح، ومع ضَعْفِ الأمَّـة في عصورها المُتأخـرة تراجعَ الاهتمام بالقرآنِ وانحسَـر، حتى اقتصر الأمر عند غالب المسـلمين على حِفْظِه وتجويـدِه وتلاوتِه فقط، بلا تدبُّر ولا فهـم لمَعانِيه ومُرادَاتِه، وترتَّبَ علـى ذلك ترك العمل به أو التقصير

---

(١) نضرة النعيم.

(٢) قواعد التدبر الأمثل/ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني.

فـي ذلك، «وقـد أنزل الله القرآن وأمَرنَا بتدبُّـره، وتكفَّل لنا بحفظِه، فانشغلنا بحفظِه وتركنا تدبُّرَه»[١].

فتَدبَّــر القرآنَ إنْ رُمْــتَ الهُدَى
فالعِلــمُ تحــتَ تَدَبُّــرِ القــرآنِ

مُصطفى شيخون

غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين

الجمعة: ١٨ جُمادى الآخرة ١٤٣٨هـ
١٧ مارس ٢٠١٧م

---

(١) حول التربية والتعليم/ د. عبد الكريم بكار.



رحلة الكتاب

قـد أكرمني اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ -وهو الجـوَّادُ الكريم- بصُحبة كتابِه الكريـم مُنـذُ بداية التزامي، فبـدأتُ أحملُه معي في حلِّـي وترحَالي، وذَهابي وإيابي، وجُلوسِـي وقيامِي، وفرحـي وأحزاني، وبدأتُ أقرأُ وأقـرأُ، وأُرتِّلُ وأُرتِّـلُ، وأترنَّمُ به وأُحبِّر، فأحبَبْـتُ القرآنَ، ومجالسَ القـرآن، ومَقـارئ القـرآن، وأهـلَ القـرآن، وكُلّ مـا يتعلَّـقُ بالقرآن، فأحسَسْـتُ بالرَّاحة، وشَعَرْتُ بالسَّـعادَة، ونزَلتْ على قلبي السَّكينةُ، فازدَادَ حُبِّي للقرآن، وكَثُرَ جلوسـي مع القـرآن، فتعلَّق قلبي بالقرآن، والتَقـتْ روحـي بالـرُّوح؛ فكنـتُ أغـدو بـه وأروح، فـكان النَّـاس يَجمعـون المـالَ، وكنـتُ أجمَعُ مـا في القـرآن مِن جمـالٍ وجَلال، فأصبحَ القرآنُ أَنيسـي في الوحشَـة، وصاحبي في الغُربَة، ونوري في الظُّلمَة، ورفيقي في طَريقِـي، وغِذائي ودوائي، فكلَّما ظَمِئتُ ذهبتُ إلـى القـرآن، وكلَّما تعثَّرتُ رجعـتُ إلى القرآن، وكلَّمـا جَهِلتُ أمرًا أو حُكمًـا تعلَّمتُـه مِن القـرآن،، فنَعِمْتُ بنعيمِ القـرآن، لأنَّ الحياةَ مع القـرآن نعمةٌ لا تُعادلها نعمة، ومِنَّـةٌ لا تُضاهيها منَّة، وأُنْسٌ لا يُجاريه

أُنْـسٌ، وعلِمـتُ أنَّ القـراءةَ وحدَهـا لا تَكفي، فـلا بُدَّ مِـن التدبُّرِ في آياتِه، والتأمُّلِ في كلماتِه، والتفكُّرِ في معانِيه، والوقوفِ عند أسرارِه، والاطـلاع على تفاسـيره؛ حتـى أكون مِن أهـل القـرآن، وكنتُ كثير الجلوس مع الأطفال والشـباب حول التربية القرآنية مِن خلال مقرأة المسجد (**المقرأة التدبُّريَّة لكلامِ ربِّ البريَّة**) على مدى أكثر مِن عشر سـنوات، لِعلمي ويقينـي أنَّ صـلاحَ الأُمَّةِ بصلاحِ شـبابِها، وصلاحَ شـبابها بصلاحِ قلوبِهم، وصلاحَ القلوب لا يكون إلَّا بالقرآن، الذي ربَّى شـبابَ الجيـلِ الأوَّل المُلقَّب بالجيـلِ القرآنـي الفريد، ففتحوا البـلادَ وقلوبَ العِباد، وعبَروا الأقطَار وتجاوزوا الأمصَار وشـهِدَتْ لهم الأرضُ وأشادَ بذكرِهم التاريخ.

فلا بُدَّ مِن تربية شبابنا تربيةً قرآنيةً أصيلةً؛ لأنَّها هي الكفيلةُ بإذنِ الله تعالى أنْ ترفع الأجيال مِن دنايا الجاهلية الحديثة والقديمة، إلى معالى الحضارة الإسلامية المُهيمنة، والمشاركة فيها بالعلم والقيم، وسـمو الهمم، وإخراجهم مِن ظلمـاتِ الجهل والضعف والهوان، إلـى نور الحق والعلم والعزَّة، ومِن عبادةِ المنافِع الماديَّة والرغبات الشـخصيَّة، وظلمات الظُّلم والاسـتبداد، إلـى الحريَّة تحت ظلال شريعة ربِّ العباد.

فـإنَّ القـرآن يدعو إلـى التحرُّر مِـن كُلِّ هذه الظُّلمـات وألوان الفساد؛ للتمتُّعِ بالعدل والخير والحق والنُّور في هذه الحياة.

فإذا تصوَّرنا كتابًا أحيَا أُمَّة، وأخرجَ ثقافة، ووجَّهَ التاريخ وجهةً جديـدةً فهو القرآن، الذي صَنعَ وما زالَ يَصنعُ هذه النَّماذج القرآنيَّة الفريدة.

فهنيئًا لِمَن عاش بالقرآن، ومع القُرآن، وفي ظِلال القرآن، يتنفَّسه في جميع لَحظاتِ حياتِه، فوالَّذي نفسي بيده، وقلبي بين إصبعين مِن إصابعِه؛ إنَّ الحياة مع القرآن لهي الحَيوان لو كانوا يَعلمون.

فعلينا أن نُطيلَ المُكْثَ مع القرآن، والعكوف عليه، نقرأَه بتفهُّمٍ وتَدبُّرٍ وتركيز، ونعيشَ مع معانيه، ونتَّصِلَ بالله مِن خلال كلِماتِه.

فـأردتُ أنْ يَتـذوَّق إخواني وأحبَابي ما تذوَّقتُه مِـن حَلاوةِ القرآن، فكان هذا الكتاب (**الوَصَايَا الوَاضِحَةُ مِن سُورةِ الفَاتِحَة**) تزكيةً للنفوس مِن أدوائِها، وجَلاءً للقلوبِ مِن أمراضِها، حوى بين جنبَاتِه فوائدَ تربويَّة، وهداياتٍ إيمانيَّة، ونصائحَ إرشاديَّة، وتطبيقاتٍ سُلُوكيَّة، ووَصَايا عمَليَّة، ليستفيدَ منها كل الأفراد على اختلاف مستوياتهم وأعمارِهِم، فكانت كالآتي:

- مُقدمةٌ عن أهميةِ فهمِ وتدبُّر القرآن
- مفاتيحُ الدخول لفهم القرآن
- تعريفاتٌ وتنبيهاتٌ مُهِمَّات
- بِطَاقةٌ تعريفيَّة بالسُّورة
- أسماءُ السُّورة إن كان لها عدَّة أسماء
- فضائلُ السُّورة وخصائصُها
- رسالةُ السُّورة
- قصَّةُ السُّورة
- كلماتُ السُّورة
- وقفاتٌ تدبُّريَّةٌ مع السُّورة
- الوصَايا العمليَّة مِن السُّورة
- نموذج اختبار على السُّورة

وقد كتبتُ هذا مُتضرِّعًا إلى ربِّ العظمةِ والجَبروت، خَلاَّقِ عَالَمِ المُلْكِ والمَلَكُوت، أنْ يعصمَني عن الزيْغ والزَّلَل، ويقِيَني مصَارعَ السُّوءِ في القولِ والعمَل، ويوفّقَني لتحصيلِ ما أرُومُهُ وأرجُوه، ويهديَني إلى تكمِيلِه على أحسنِ الوجُوه، ويجعلُه خيرَ عُدَّةٍ وعَتَاد، أتَمتَّعُ به يوم المعاد، فيا مَنْ توجَّهتْ وجُوهُ الذُّلِ والابتِهَالِ نحو بابِه المَنيع، ورُفِعَتْ أيدِي الضَّراعَةِ والسُّؤالِ إلى جَنابِه الرَّفيع، أفِضْ علينَا شوارقَ أنوارِ التوفيق، وأطلِعْنا على دقَائقِ أسرَارِ التحقِيق، وثبِّتْ أقدامَنا على منَاهِجِ هُدَاك، وأنطقنَا بمَا فيه أمرُك ورِضَاك، ولا تكِلْنَا إلى أنفُسِنَا في لحظةٍ ولا آن، وخُذ بناصِيتِنَا إلى الخَيْرِ حيثُ كان، جئناك على جِبَاهِ الاسْتِكانَةِ ضَارعِين، ولِأبْوابِ فيْضِك قارعِين، أنتَ المَلاذُ في كل أمرٍ هَمَّ، وأنتَ المُعَاذُ في كُلِّ خَطْبٍ مُلِم، لا ربَّ غيرُك، ولا خيرَ إلَّا خيرُك، بيَدِكَ مقاليدُ الأمُور، لك الخلقُ والأمرُ وإليك النُّشور(١).



(١) من مقدمة كتاب إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم تفسير أبي السعود بتصرُّفٍ يسير.



مفاتيح قبل الدخول على القرآن

هُنا سأنقِلُ عِبارات للسَّلفِ الصَّالحِ الأجِلَّاء، والسَّادةِ العُلمَاء؛ تحُثُّ علـى فَهْمِ القرآن والعملِ به، عَلَّهَا تكـون دافعًا للإقبال عليه والاهتمام به والحياة تحت ظلاله.

«ليتَني كُنْتُ اقتَصَرتُ على القرآن».

[سفيان الثوري]

«ونَدِمْتُ على تَضْييع أكثرَ أوقاتي في غيرِ مَعاني القرآن».

[ابن تيمية]

«لمَّا كان هذا الكتابُ بهذه المَنزلة؛ حيثُ نزلَ به أمينُ السَّــماء على أمينِ الأرض؛ عزمْتُ أن أُفني فيه عُمُري».

[القُرطبيُّ]

«إنَّ مَنْ كان قبلكم رأوْا القرآنَ رسائلَ مِن ربهم فكانوا يتدبَّرونها بالليل ويتفقَّدونها في النَّهار».

[الحسن بن علي]

« إني لأقرأُ القرآنَ فأنظرُ فيه آيةً آية؛ فيَحَارُ عقلي فيها، وأعجبُ مِن حُفَّاظِ القرآن كيف يُهْنيهِمُ النَّوم ويُسيغُهم أن يشتغلوا بشيءٍ مِن الدُّنيا وهم يتكلَّمون كلام الرحمن! أمَا لو فهموا ما يتلون وعرفوا حقَّه وتلذَّذوا به، واسْتَحْلُوا المُناجاة به؛ لذهبَ عنهم النَّوم فرحًا بما رُزِقُوا ووُفِّقُوا».

[أحمد بن أبي الحواري]

«اقرءوا القرآن ولا تغرنَّكم هذه المصاحف المُعلَّقة؛ فإنَّ الله لا يُعذِّب قلبًا هو وِعَاءٌ للقرآن، أو قال وَعَى القرآن».

[أبو أمامة الباهلي]

«إذا أردتم العلم؛ فانثروا القرآن، فإنَّ فيه علم الأوَّلين والآخِرين».

[عبدالله بن مسعود]

«وممَّا رفعَني اللهُ به؛ القرآن».

[الأعمش]

«واللهِ ما دُونَ القرآن مِن غنى، ولا بَعده مِن فاقة».

[الحسن البصري]

«عزيزٌ عليَّ أنْ تُذِيبَ الدُّنيا أكبادَ رجالٍ وَعتْ صدُورهُم القرآن».

[أحمد بن حنبل]

«لا تهذُّوا القرآن هذَّ الشعر، ولا تنثروه نثرَ الدَّقل -الرديء مِن التَّمر-؛ قِفوا عند عجائبه وحرِّكوا به القلوب ولا يكُن همَّ أحدكم آخر السورة» «إنَّ هذه القلوب أوعية فاشغلوها بالقرآن ولا تشغلوها بغيره».

[عبدالله بن مسعود]

«لَا تَبْلُغُوا ذِرْوَةَ هَذَا الْأَمْرِ إِلَّا حَتَّى لَا يَكُونَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ، وَمَنْ أَحَبَّ الْقُرْآنَ فَقَدْ أَحَبَّ اللهَ، افْقَهُوا مَا يُقَالُ لَكُمْ».

[سفيان الثوري]

«عليكم بالقرآن، فإنَّه فهمُ العقل، ونورُ الحكمة، وينابيعُ العلم؛ وأحدَثُ الكُتُبِ عهدًا بالرحمن، ولِعظيم ما فيه مِن البركات كانت تلاوته واستماعه مِن أعظم القُربات، والاشتغال بتعلُّمه وتعلِيمه مِن أسمى الطاعات، وكان لأهله أعلى الدرجات وأوفى الكرامات».

[كعب الأحبار]

«عليكـم بالقرآن فتعلَّموه وعلِّموه أبناءكم، فإنَّكم عنه تُسـألون وبه تجزَوْن وكفى به واعظًا لمَن عَقِل».

[عبد الله بن عمر]

«اعمُروا به قلوبَكم واعمُروا به بيوتَكم، يعني القرآن».

[قتادة]

«سَـيَبْلَى القرآنُ فـي صدور أقـوامٍ كما يبْلَى الثـوب فيتهافت، يقرءونَه لا يجدون له لذَّةً، يلبسون جلود الضأن على قلوبِ الذئاب، أعمالُهم طَمَعٌ لا يخالطه خوف، إن قصَّروا قالوا سنبلُغ، وإن أساءوا قالوا سيُغفر لنا إنا لا نشرك بالله شيئًا».

[معاذ بن جبل]

«لقد عشـنا دهرًا طويلًا وأحدنا يؤتَـى الإيمان قبل القرآن فتنزل السـورة على محمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فنتعلمُ حلالهـا وحرامها وأمرها وزجرهـا، ومـا ينبغي أن يقف عنـده منها، ثم لقد رأيـتُ رجالًا يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين الفاتحة إلى خاتمته لا يدري ما أمره ولا زجره وما ينبغي أن يقف عنده منه، ينثره نثرَ الدَّقل -الرديء مِن التَّمر- كناية عن عدم اهتمامه ورعايته للقرآن».

[عبدالله بن عمر]

«لـو تفرَّغتُم لكتابِ الله لوجدتم فيه شـفاء لِمَـا تريدون، قلنا: قد تعلَّمنا القرآن، قال: إن في تعلُّمِ القرآن شُـغلًا لأعماركم وأعمار أولادكـم وأولاد أولادكـم، قلنـا: كيـف؟ قـال: لن تعلمـوا القرآن حتـى تعرفوا إعرابَه ومُحْكَمَه ومُتشـابهَه وحلالَه وحرامَه وناسِـخَه ومنسُوخَه».

[الفضيل بن عياض]

«إنَّا صَعُبَ علينا حفظَ ألفاظِ القرآن وسَهُلَ علينا العمل به، وإنَّ مَن بعدنا يسهُل عليهم حفظ القرآن ويصعُب عليهم العمل به».

[عبدالله بن مسعود]

«يا ابن آدم: واللهِ إنْ قرأتَ القرآن ثم آمنتَ به ليطولنَّ في الدُّنيا حُزْنُك، وليشتدَّنَّ في الدُّنيا خوفُك، وليكثُرَنَّ في الدُّنيا بُكاؤك».

[الحسن البصري]

«مَنْ تدبَّرَ القرآنَ طالبًا الهُدى منه، تبيَّن له طريق الحق».

[ابن تيمية]

«لقـد تأمَّلـتُ الطُّرُقَ الكلاميَّـة والمناهجَ الفلسـفيَّة؛ فما رأيتُها تشـفي عليلًا ولا تـروي غليلًا، ورأيتُ أقـربَ الطُّرُقِ: طريقة القرآن».

[فخر الدين الرازي]

«واعلـم أنَّ قوَّةَ الدينِ وكمَالَ الإيمانِ واليقينِ؛ لا يحصُلان إلا بكثـرةِ قراءة القرآن واسـتماعه، مـع التدبُّر بنيَّة الاهتـداء به والعمل به والعمـل بأمره ونهيه، فالإيمان الإذعانـي الصحيح يزداد ويقوى ويترتَّـب عليه آثاره مِن الأعمال الصالحة وترك المعاصي والفسـاد بقدر تدبُّر القرآن، وينقص ويضعف على هذه النسبة من ترك تدبُّره».

[محمد رشيد رضا]

«أقول لكم ما أُومنُ به وأدين: إنه ليس بكتابٍ فحسْب، إنَّه أكثرَ مِن ذلك؛ إذا دخل في القلبِ تغيَّر الإنسـان، وإذا تغيَّر الإنسـان تغيَّر العالَم، إنَّه كتابٌ حيٌّ خالدٌ ناطق، إنَّه يحتوي على حدود الشـعوب والأمم ومصير الإنسانيَّة».

[محمد إقبال]

«عليك بتدبُّر القرآن حتى تعرف المعنى، تَدَبَّرَه مِن أوَّلِه إلى آخِره، واقـرأه بتدبُّر وتعقُّل، ورغبة في العمـل والفائدة، لا تقرأه بقلبٍ غافل، اقـرأه بقلبٍ حاضر، واسـأل أهل العلم عمَّا أُشـكِلَ عليك مع أن أكثرَه -بحمد الله- واضحٌ للعامَّة والخاصَّة مِمَّن يعرف اللغة العربية».

[ابن باز]

«قُـرَّاءُ القـرآن ثلاثة أصنـاف: صِنفٌ اتخـذوه بِضَاعـةً يأكلون

بـه، وصِنفٌ أقاموا حروفَه وضيَّعوا حدودَه واسـتطالوا به على أهل بلادهـم واسـتدروا بـه الولاة، كثُـرَ هذا الضـرب مِن حملـة القرآن لا كثَّرَهـم اللهُ، وصِنـفٌ عمَدوا إلى دواء القـرآن فوضعوه على داء قلوبهم فركدوا به في محاريبهم وحنوا به في برانسـهم واستشعروا الخوف فارتدوا الحزن، فأولئك الذين يسقي اللهُ بهم الغيث وينصر بهـم على الأعـداء، واللهِ لهؤلاء الضرب مِن حملـة القرآن أعزُّ مِن الكبريت الأحمر».

[الحسن البصري]

«إنَّ مِـن أعظم ما يحرقُ هذه الطوائف الفكرية المُخالِفة لأهلِ السُّـنَّةِ والجماعةِ في منهـج الإصلاح والنهضة: الدعـوة إلى تلاوةِ القرآن وتدبُّرِ معانيه، وقد رأيتُ شـبابًا كثيرًا كانت لديهم إشكاليات كثيرة بسبب القراءة في بعض الكتب والمقالات الفكرية المُنحرِفة، فأوصاهم بعضُ المُتخصصين بتـلاوةِ القرآن وتَدبُّرِ معانيه، فما هو إلا فترةً يسـيرةً حتى زالت عنهم الغشاوة كلها، وتبيَّن لهم المطالب التـي يريدُها اللهُ مِن العبـاد، ودرجاتها وأولوياتهـا، فصاروا بحمدِ اللـه يُعظِّمـونَ ما عظَّمه القرآن، ويستهِينُونَ بما اسـتهان به القرآن، ويُقدِّمـونَ مـا قدَّمَهُ القرآن، ويؤخِّـرون ما أخَّره القـرآن، وأصبحتْ الرؤية عندهم شديدة الوضوح».

[إبراهيم السكران]

«إنَّ مواعـظَ القـرآنِ تُذِيبُ الحديـد، وللفُهُـوم كل لحظةٍ زجْرٌ جديـد، وللقلـوبِ النيِّـرة كل يـومٍ به وعيـد، غيـر أَنَّ الغافـلَ يَتْلوه ولا يَسْتَفِيد».

[ابن الجوزي]

«وحـدَهُ القـرآن يأتي بك سـريعًا، مهما تخبَّطت يمينًا ويسـارًا وتقلَّبـتَ فـي الخطايـا والرزايا، مهما طالت المسـافة التي مشـيتَها مُبتعـدًا ومُعرضًـا عـن طريـق الله، مهمـا كان حجـم التفريط الذي أصابَـك، مهما اسـتطال فتـورك، مهما كانت الأسـباب التي تحول دون اقترابـك، مهمـا كنـتَ قانطًـا؛ تجد القـرآن يطوي بـك الزمان والمكان ويضعـك على أعتاب باب الله بقوَّتِه الجبَّارة التي أودعها اللهُ فيه، وسطوتِه التي تخشع لها الجبال فضلًا عن قلوب الرجال..

أصلِح علاقتك بالقرآن يا صديق؛ يتضح لك الطريق».

[مصطفى شيخون]

«كَانَ حَقِيقًـا بِالْإِنْسَـانِ أَنْ يُنْفِقَ سَـاعَاتِ عُمُرِهِ بَلْ أَنْفَاسَـهُ فِيمَا يَنَـالُ بِهِ الْمَطَالِـبَ الْعَالِيَةَ، وَيَخْلُصُ بِهِ مِنَ الْخُسْـرَانِ الْمُبِينِ، وَلَيْسَ ذَلِـكَ إِلَّا بِالْإِقْبَـالِ عَلَى الْقُـرْآنِ وَتَفَهُّمِـهِ وَتَدَبُّرِهِ وَاسْـتِخْرَاجِ كُنُوزِهِ وَإِثَـارَةِ دَفَائِنِـهِ، وَصَرْفِ الْعِنَايَـةِ إِلَيْهِ، وَالْعُكُـوفِ بِالْهِمَّةِ عَلَيْـهِ، فَإِنَّهُ الْكَفِيـلُ بِمَصَالِحِ الْعِبَادِ فِـي الْمَعَاشِ وَالْمَعَـادِ، وَالْمُوَصِّلُ لَهُمْ إِلَى

سَبِيلِ الرَّشَادِ، فَالْحَقِيقَةُ وَالطَّرِيقَةُ، وَالْأَذْوَاقُ وَالْمَوَاجِيدُ الصَّحِيحَةُ، كُلُّهَا لَا تُقْتَبَسُ إِلَّا مِنْ مِشْكَاتِهِ، وَلَا تُسْتَثْمَرُ إِلَّا مِنْ شَجَرَاتِهِ».

[ابن القيم]

«وتَلقِّي القرآن بمعنى استقبال القلب للوحي، على سبيل الذكْر، إنما يكون بحيث يتعامل معه العبد بصورة شُهُودية، أي كأنما يشهد تنزَّلَه الآن غضًّا طريًّا! فيتدبَّره آيةً، آيةً، باعتبار أنها تنزَّلتْ عليه لتخاطبه هو في نفسِه ووجدانِه، فتبعث قلبه حيًّا في عصره وزمانه، ومِن هنا وصف الله تعالى العبد الذي «يتلقَّى القرآن» بهذا المعنى: بأنه يُلْقى له السمع بشهود القلب، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾، ذلك هو الذاكر حقًّا، الذي يحصل الذكرى ولا يكون مِن الغافلين».

[فريد الأنصاري]

«ما رأيتُ شيئًا يُغذِّي العقلَ والروحَ ويحفظ الجسمَ ويضمن السَّعادة؛ أكثر مِن إدامةِ النظر في كتاب الله تعالى».

[ابنُ تيمية]





تعرِيفَاتٌ وتنبيهَاتٌ مُهِمَّاتٌ

القرآن الكريم:

التعريف بالقرآن الكريم لغةً: بالرُّجوعِ إلى معاجِمِ اللغةِ والتَّفاسيرِ التي تهتمُّ بمعاني القرآنِ، تبيَّن أن هناك قولينِ:

الأوَّل: أنَّ القرآنَ اسمُ عَلَمٍ على كتابِ الله ليس مُشتقًّا.

والثاني: أنَّه مشتقٌّ مِن فعلٍ مَهْموز؛ وهو: «قرأ، اقرأ»، ويَعْني: تفهَّم، تفقَّه، تدبَّر، تعلَّم، تتبَّع.

وقيل: «اقرأ»: تحمَّل؛ فالعربُ تقول: (ما قرأَتْ هذه النَّاقَةُ في بطنها سَلًا قَطُّ؛ أي: ما حمَلَتْ جنينًا قط)[1].

فالمعنى: تحمَّل هذا القرآنَ؛ بقَرِينةِ قولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥]. واستعنْ على تحمُّلِ القول الثَّقيل بقيام الليلِ الطويل ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾ [المزمل: ٢]؛ وهو ما أُمِرَ بِه في أَوَّلِ السُّورة (ولَقد حُمِّلَ اليهودُ التَّوراةَ فلمْ يحمِلوهَا).

---

(١) لسان العرب.

وقيل: مِنَ القَرْءِ، وهو الجَمْعُ والضَّمُّ.

وقيل: مِـن فعلٍ غيرِ مهموزٍ (دون همزة)، وهو «قَرَن»؛ مِن قَرَنْتُ الشَّيءَ بالشَّيءِ، وهو القِرانُ.

وقيـل: مِـن القِـرى (بكسـرِ القـاف)، وهـو الضِّيافـةُ والكـرَمُ أوِ الإكْرَام؛ ففي حديثِ عَبْدِ اللهِ بنِ مسْـعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رَسُـولُ اللـهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ هَـذَا القُـرْآنَ مَأْدُبَةُ اللـهِ، فَتَعَلَّمُوا مِـنْ مَأْدُبَتِهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ**»(١).

فيُقَـال: مأدُبَـةٌ بضـمِّ الـدَّالِ وفتحِهَـا مِـنَ الأدَبِ؛ **قـال القُرطبيُّ**: (وتأويلُ الحديثِ أنَّه مَثَلٌ؛ شَبَّهَ القرآن بصَنِيعٍ صَنعَه اللهُ عَزَّوَجَلَّ للنَّاسِ، لهم فيه الخيرُ والمنافعُ، ثم دَعَاهُم إليه؛ يُقال: مَأدُبَة ومَأدَبَة؛ فمَن قال: مَأدُبَة، أراد الصَّنيعَ يصنعه الإنسان فيدعو إليه النَّاس، ومَن قال: مَأدَبَة، فإنَّه يَذْهَبُ به إلى الأدَبِ، يجعله مَفْعَلةً مِنَ الأدَب).

تلـك بعـضُ معاني «اقْـرأْ» التي قال عنهـا أهلُ العلـمِ: (**عُنْوانُ القرآن**).

التعريـف بالقرآن الكريم في الاصطـلاح: هو «كلامُ اللهِ تعالى المُنـزَّلُ علـى نبيِّـه مُحمَّـدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، المُعْجِـزُ بلفْظِـه ومعنَاه،

---

(١) ذكرَه ابنُ كَثيرٍ في فضائلِ القرآن، والبَيْهقيُّ في شُعَب الإيمان.

المُتعبَّدُ بتِلاوتِه، المنقولُ إلينا بالتَّواتُر، المكتوبُ في المصَاحِفِ مِن أَوَّلِ سُورةِ الفاتحةِ إلى آخرِ سُورةِ النَّاسِ»، وهو التعريف المختار(١).

الآية:

الآية لغةً: وَردَتْ بمعنى **العَلامَة**، ومِنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٨]. أي: عَلامَةَ مُلكه.

وبمعنى **الدليل**، ومِنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠]. أي دلائل قُدرته.

وبمعنى **العبرة**، ومِنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٨]. أي عبرة لمَن بعدهم.

وبمعنى **المعجزة**، ومِنه قوله تعالى: ﴿سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ [البقرة: ٢١١]. أي مِن مُعجزة واضحة، إلى غير ذلك مِن المعاني.

وفي الاصطلاح: جُزءٌ مِن السُّورةِ لها مبدأ ونهاية، وآخرُهَا يُسمَّى فاصلة.

---

(١) نقلًا عن: د. أمين الدميري.

وقيل: طائفةٌ مِن القرآن مُنقطِعةٌ عمَّا قبلها وعمَّا بعدَها.

وهـذا التعريف غيـر مانع؛ لدخول السُّـورة فيـه، إلَّا إذا راعيْنا في التعريف اندراجها في السُّـورة، والمُناسـبة بيـن المعنى اللُّغَوي والاصطلاحـي ظاهـرة لأنهـا علامـة علـى نفسـها بانفصالهـا عمَّا قبلهـا وما بعدهـا؛ أو لأن فيها عِبـرًا ودلائل لمَـن أراد أن يتَذكَّرَ، أو لأنهـا بانضِمَامِهَا إلى غيرها تكون مُعجزة دالَّة على صدقِ الرسـول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

وآيـاتُ القرآنِ تختلفُ طولًا وقصًرا، وأكثرُ الآياتِ الطوال في السِّـورِ الطوال، وأكثرُ الآياتِ القِصَار في السِّور القِصَار، وأطولُ آيةٍ هـي آيةُ الدَّيْن، وأقصرُ آيةٍ ﴿ طه ﴾ و ﴿ يسٓ ﴾ عند مَن عدَّهما، وقد تكون الآية مُكوَّنة مِن كلمةٍ واحدة كـ ﴿ مُدۡهَآمَّتَانِ ﴾ [الرحمن: ٦٤] وقـد تكون مُؤلفَة مِن كلمتين مثل: ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴾ وقد تكون مِن أكثرِ مِن ذلك، وهو غالبُ آياتِ القرآن.

وقـال بعـض العلمـاء: ليـس في القـرآنِ كلمـة واحدة آيـة إلَّا ﴿ مُدۡهَآمَّتَانِ ﴾ ومراده مما اتفق على كونه آية بخلاف ما سواها مما هو كلمة واحدة، أو أقصر منها في التلفُّظ، فإنَّه ليس بمُتفق عليه مثل طه ويس، والحاقة والقارعة.

وقد يُطلق اسـم الآية ويُراد بعضها مجازًا، وذلك مثل قول ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ:

أرجـى آيةٍ في القـرآن ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ﴾ [الرعد: ٦].

فإنَّه جُزءٌ مِن آيةٍ باتفاق، ووقع إطلاق اسـم الآية على أكثر مِن آية، وذلك مثل قول ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ:

أحكمُ آيةٍ في القـرآن ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: ٧ – ٨].

وهاتـان آيتان باتفـاق، ومثل ذلك يَـرِد كثيرًا في كلام السـلف والخلف، وففي باب المجاز ما يُصَحِّح كل ذلك(١).

السورة:

السورة في اصطلاح العلماء:

طائفـةٌ مِن آيـاتِ القرآنِ جُمعَتْ وضُـمَّ بعضُها إلى بعض حتى بلغتْ فـي الطولِ والمِقـدارِ الذي أراده اللـه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لها، وكل سور القرآن بدأت بالبسملة إلَّا سورة براءة.

---

(١) انظر: المدخل لدراسة القرآن الكريم، محمد أبو شهبة.

وقـد اختُلِـفَ في أصل مأخَذِهـا، **فقيل**: هي مأخوذةٌ مِن سُـورِ المدينة، لإحاطتها بآياتها إحاطة السُّور بالبُنيان.

وقيـل: لأنها ضمَّـت آياتها بعضها إلـى بعض، كما أن السُّـورَ تُوضـعُ لَبِناتُه بعضُها فوق بعض حتى يصلَ إلى الارتفاع الذي يُراد، **وقيل**: مأخوذةٌ مِن السورة، وهي الرُّتبة والمنزلة.

كما قال النَّابغةُ الذُّبيَاني:

ألـم تـرَ أنَّ اللهَ أعْطاكَ سُّـورَةً
تَرَى كُلَّ مُلْكٍ دُونهَـا يَتذَبْذَبُ

وسِـوَرُ القـرآنِ مرَاتِـبٌ ومنـازلٌ يترقَّى فيهـا القارئُ مِـن منزلةٍ إلـى أُخـرى، وقيل: مأخـوذةٌ مِن السـؤر، وهو ما بقي مِن الشـراب فـي الإناء، كأنها قطعة مِن القرآن وبقيـة منه وهي على هذا مهموزة وحُذِفَتْ همزتها تخفيفًا.

ومعرفـة السـور توقيفـي: ومعرفة سـورة القرآن كلهـا توقيفي كمعرفة آياته، وسور القرآن تختلف طولًا وقِصرًا، فأطول سورة هي البقرة، وأقصر سورة هي الكوثر.

ولِتَسْوِيرِ القرآن سورًا فوائد، منها:

◇ حُسنُ الترتيبِ والتنويع والتبويب فالجنس إذا انطوت تحته أنواع وأصناف كان أحسن وأفخم مِن أن يكون بابًا واحدًا، ونوعًا واحدًا، ولا يزال المؤلفون مِن قديم الزمان إلى يومنا هذا يجعلون كتبهم أبوابًا وفصولًا، حتى أضحى حُسنُ الترتيبِ والتبويبِ مِن أعظم المُشوِّقَاتِ إلى قراءة الكتاب، بل أصبح تبويب الكتب وتنسيقها فنًّا مُستقلًا برأسِه.

◇ تسهيلُ الحفظِ وبعثُ الهمَّةِ والنشاط، ألا ترى أن القارئَ إذا أكمل سورةً ثم أخذ في حفظ غيرها كان ذلك أنشط له، وأبعث على التحصيل منه لو استمر على الكتاب بطولِه.

◇ أن الحافظ إذا حَفِظَ سورة وحذِقَها اعتقد أنَّه أخذ مِن كتاب الله حظًّا ونصيبًا، فيعظُمُ عنده ما حَفِظَه، ويعظُم هو في نفوسِ النَّاس، يُشيرُ إلى هذا المعنى كلامُ أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ:

«**كَانَ الرَّجُلُ إِذَا قَرَأَ البقرَةَ وآلَ عِمْرَانَ جَدَّ فِي أَعْيُنِنَا**» أي: عَظُمَ، عني صار جليلًا مُعظَّمًا؛ لأنهم لا يحفظونه إلَّا إذا عرفوا معناه، معنى ذلك أن الإنسان إذا كان يحفظ البقرة لفظًا ومعنًى، أحكامًا وحدُودًا، روايةً ودِرايةً، وكذلك آل عمران؛ فعنده علمٌ وفقهٌ كبير.

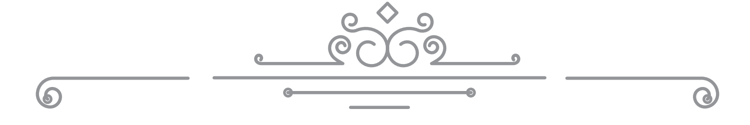
◇ أن في التسوير والتفصيل تلاحق الأشكال والنظائر، ومُلاءمة بعضها لبعض، ولذلك نجد أغلب سور القرآن يدور الحديث فيها حول موضوع بارز، ولها نمطٌ خاصٌّ تستقِلُّ به، فسورةُ يوسف تتحدَّث عن قصَّته، وسورةُ إبراهيم تتحدَّث عنه، وسورةُ النساء تتحدث عن حقوقهنَّ وما عليهنَّ، وسورةُ آل عمران تتحدَّث عن قصصهم، وهكذا.

◇ أن في التسوير إشارة إلى أن طولَ السورة ليس شرطًا في إعجازها بل هي معجزة وإن بلغت الغاية في القِصَر كسورة الكوثر[1].



---

(١) المدخل لدراسة القرآن الكريم، بتصرُّفٍ يسير.



لِلطَّالِبِيـــنَ بِهَــا فَوائِــدُ جَمَّةٌ
ومَواعِــظٌ مأثُــورَةٌ ونَصَائِــحُ

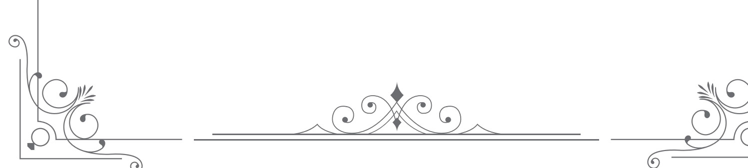


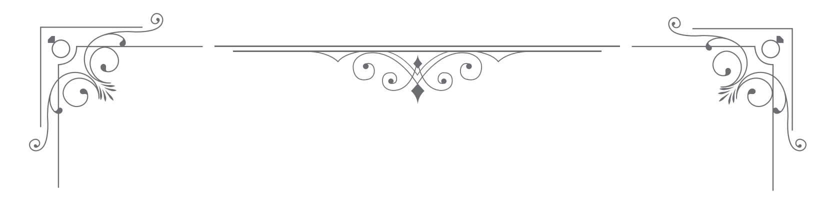
أَعْظَمُ سُّورَةٍ فِي الْقُرْآنِ



سُورَةُ الفَاتِحَةِ

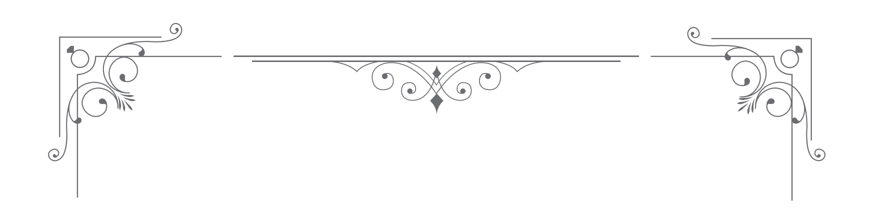
﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ١ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ
ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ
ٱلدِّينِ ٤ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥ ٱهۡدِنَا
ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ
ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧ ﴾





بطاقة سورة الفاتحة

مكان النزول	مكيَّة
عدد الآيات	٧
عدد الكلمات	٢٩
عدد الحروف	١٤٣
ترتيب المصحف	١
ترتيب النزول	نزلت بعد المُدَّثِّر



أسماء سورة الفاتحة

فاتحةُ الكِتاب:

«لأَنَّها يُفتَتَح بكتابتِها المصاحف، ويُقرأ بها في الصَّلوات؛ فهي فواتحُ لِمَا بعدها مِن سُور القرآن في الكتابة والقِراءة»[1].

أُمُّ القرآن، أُمُّ الكِتاب:

«لأنَّ أمَّ الشيء أصْلُه، وهي أصْلُ القرآن لانْطوائها على جميع أغراضِ القرآن، وما فيه مِن العلوم والحِكَم»[2].

القُرآنُ العظيم:

لأَنَّها اشتملتْ على كُليَّاتِ ومقاصِدِ القرآنِ العظيم؛ مِن التوحيدِ والأحكامِ والقَصَص والأخبار.

---

(١) تفسير الطبري.

(٢) السيوطي في الإتقان.

السَّبْعُ المثاني:

السَّـبْع؛ لأنَّها سـبع آياتٍ، ومثـانٍ؛ فلأنَّها تُثَنَّـى قراءتها في كلِّ صلاة، أي تُكرَّر وتُعَاد.

وقِيلَ لاشتمالها الثناءَ، والعبدُ يُثني به على الله.

وَقِيلَ لِأَنَّهَا اسْتُثْنِيَتْ لِهَذِهِ الْأُمَّة فلَمْ تَنْزِل عَلَى مَنْ قَبْلهَا.

سورةُ الصَّلاة:

لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ربّه عَزَّوَجَلَّ: «**قَسَمْتُ الصَّلاةَ بيني وبين عبْدي نصفين، فإذا قال العبدُ: «الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ»، قال اللَّهُ: حمِدَني عبْدي..**» الحديث[1].

فسُمِّيَتْ صلاةً؛ لأنَّها شرطٌ فيها[2].

سورةُ الحَمْد:

لكوْنِهـا مُفتَتَحـةً بالحَمْـد، وهي إحدى السـور الخمْـسِ التي بدأتْ بالحَمْد.

(١) مسلم.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم.

الرُقية، الشَّافية:

لحديث أبي سـعيدٍ الخُدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فـي الصَّحيح حين رَقى بهـا الرَّجل السَّـليم أي اللديـغ، فقال له رسـولُ اللَّهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**وما يُدْرِيكَ أَنَّها رُقْيَةٌ؟ أَصَبْتُمْ،...**» الحديث[١].

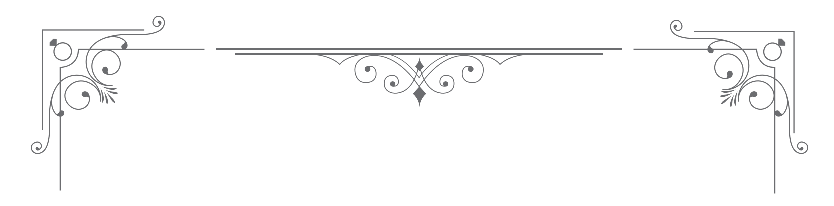
وشـافية: لأنَّـه يحصُـل بقراءتِهَـا الشـفاء بـإذنِ ربِّ الأرضِ والسَّماء.

الكافية:

لأنَّها تكْفي في الصَّلاةِ عن غيرها، ولا يكْفي عنها غيرُها.



(١) البخاري.



رسالة سورة الفاتحة

يَـدُورُ مِحْوَرُ السُّـورَةِ عَنْ أُصُـولِ الدِّيـنِ وَفُرُوعِـهِ، وَالعَقِيدَةِ، وَالعِبَادَةِ، وَالتَّشْرِيعِ، وَالاعْتِقَادِ باليَوْمِ الآخِرِ، وَالإِيمَانِ بِصِفَاتِ اللَّهِ الحُسْـنَى، وَإِفْرَادِهِ بالعِبَادَةِ وَالاسْـتِعَانَةِ وَالدُّعَـاءِ، وَالتَّوَجُّهِ إِلَيْهِ جَلَّ وَعَلاَ بطَلَبِ الهِدايةِ إلى الدِّينِ الحَقِّ وَالصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ، وَالتَّضَرُّعِ إِلَيْهِ بالتَّثْبيتِ عَلَى الإِيمَانِ وَنَهْجِ سَـبِيلِ الصَّالِحِيـنَ، وَتَجَنُّبِ طَرِيقِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ، وَالإِخْبَارِ عَنْ قِصَصِ الأُمَمِ السَّابِقِينَ، وَالاطِّلَاعِ عَلَى مَعَارِجِ السُّـعَدَاءِ وَمَنَازِلِ الأَشْقِيَاءِ، وَالتَّعَبُّدِ بِأَمْرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَنَهْيِهِ[1].



---

(١) انظر: التفسير المُحرَّر.



قصة نزول سورة الفاتحة

ليس لها سبب نزول، ويُمكن أن نقول أنها نزلت لمناسبة البدء بتشـريع الصلاة، ولا دليل على ذلـك، وجمهور أهل العلم على أنَّ الفاتحة مكيَّة، وهو الصَّواب، والله تعالى أعلم.

ولكن كان لنزولِ سـورة الفاتحة شأنٌ خاصٌّ يدلُّ على فضلِها وعظمتِهـا، وفيه إشـارةٌ إلـى ما ينبغـي أن تُتلقَّى به هذه السُّـورة مِن حُسنِ التلقِّي والقبول والتكريم، فعَنِ ابْنِ عبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا قَالَ:

بيْنَمـا جِبْرِيـلُ عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ قاعِـدٌ عِنـدَ النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ سَـمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ[1]، فَرَفَعَ رَأْسَه فقَالَ:

«هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ اليَوْمَ ولَمْ يُفْتَح قَطُّ إِلَّا اليَوْمَ»

فَنَزَلَ مِنه مَلكٌ فقالَ: **«هذا مَلَكٌ نَزَلَ إِلى الأَرْضِ لم يَنْزِلْ قَطُّ إِلاَّ اليَوْمَ فَسَلَّمَ وقال:**

أَبشِـرْ بِنورَينِ أُوتِيتَهُمَـا، لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبلَـكَ: فَاتحةِ الكِتَابِ،

---

(١) النقيض هو الصوت، ونقيضُ السقف تحرُّك أجزائه حتى يُحدِثَ صوتًا.

وخَواتِيم سُورَةِ البَقَرةِ، لَن تَقرأَ بحرْفٍ مِنْهَا إلاَّ أُعْطِيتَه»[١].

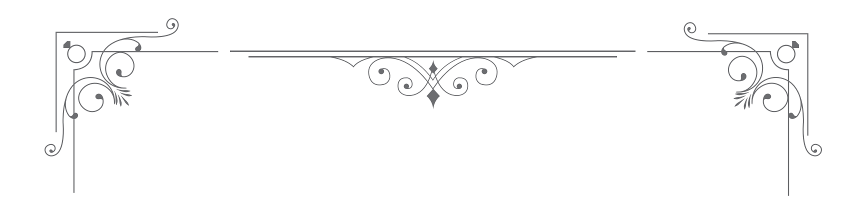
وفي هـذا الحديث بِشـارة عظيمة للنبـيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولأمَّتِه بما اختصَّهم الله به مِن إنزال سـورة الفاتحة وخواتيم سـورة البقرة عليهم دون سائر الأمم.

وأنـزلَ مَلَـكًا كريمًا إلى السَّـماء لم ينزل مِن قبـل قط، وما نزل إلا ليبلِّـغ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه البُشـرَيات العظيمة، وما تضمَّنته كلُّ بِشـارة منهـا مِـن كرامـاتٍ جليلـة للنبـيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولأمَّتِـه تسـتوجب شـكر الله تعالى ومحبَّته واتّباع رضوانه؛ فهي نورٌ عظيم البركة، واسـع الهدايـات، جليل البصائر، وهي كرامـة خاصَّة لهذه الأمَّـة؛ لم تُعطها أمَّة مِن الأمم، ودعاءُ الداعي بها مُسـتجاب؛ وأكَّد هذه البشارة بتأكيد جامع بين الحصر والاستغراق؛ «**لَن تَقرأَ بحرْفٍ مِنْهَا إلاَّ أُعْطِيتَه**».



---

(١) مسلم.



فضائل وخصائص سورة الفاتحة

لهذه السُّورة مكانة متميّزة بين سائرِ سور القرآن الكريم، وتتميَّزُ بالخصائصِ والفضائلِ التالية:

إنَّها أعظمُ سُّورةٍ في القرآن:

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ۝٨٧﴾ [الحجر: ٨٧].

وعَنْ أَبِي سَعِيدِ بْنِ الْمُعَلَّى رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَه: «**لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ السُّوَرِ فِي الْقُرْآنِ قَبلَ أَنْ تَخرُجَ مِنْ الْمَسْجِدِ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ قُلْتُ لَهُ: أَلَمْ تَقُلْ لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ؟ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي، وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ**»[1].

(١) البخاري.

إنَّها نُورٌ، ولم يُؤْتَها نبيٌّ قبل نبيِّنا محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

عَـنِ ابْنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَـالَ: بيْنَما جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَـمِعَ نَقِيضًا مِـنْ فَوْقِهِ، فَرَفَعَ رَأْسَـه فَقَالَ: «**هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ اليَوْمَ ولَمْ يُفْتَح قَطُّ إلاَّ اليَوْمَ فَنزَلَ مِنه مَلكٌ فقالَ: هـذا مَلَكٌ نَزَلَ إِلى الأَرْضِ لم يَنْزِلْ قَطُّ إلاَّ اليَوْمَ فَسَـلَّمَ وقال: أَبشِـرْ بِنورَيـنِ أُوتِيتَهُمَا، لَـمْ يُؤْتَهُمَا نَبِـيٌّ قَبلَكَ: فَاتحةِ الكِتَـابِ، وخَواتِيم سُورَةِ البَقَرةِ، لَن تَقرأَ بحرْفٍ مِنْهَا إلاَّ أُعْطِيتَه**»(١).

لم يُنزِل اللهُ في التوراةِ ولا الإنجيلِ ولا الزَّبُورِ ولا القرآنِ مثلها:

عَـنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُـولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لأُبَيِّ ابْـنِ كَعْب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**أَتُحِبُّ أَنْ أُعَلِّمَكَ سُـورَةً لَمْ يَنْـزِلْ فِي التَّوْرَاةِ وَلَا فِـي الْإِنْجِيـلِ وَلَا فِـي الزَّبُـورِ وَلَا فِـي الْفُرْقَـانِ مِثْلُهَـا**؟» قَـالَ: نَعَمْ، يَا رَسُـولَ اللَّهِ، قَالَ رَسُـولُ اللَّـهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كَيْفَ تَقْرَأُ فِي الصَّـلَاةِ**؟» قَـالَ: فَقَـرَأَ أُمَّ الْقُـرْآنِ. فَقَالَ رَسُـولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَالَّـذِي نَفْسِـي بِيَدِهِ مَـا أُنْزِلَتْ فِي التَّـوْرَاةِ وَلَا فِي الْإِنْجِيـلِ وَلَا فِي الزَّبُورِ وَلَا فِي الْفُرْقَانِ مِثْلُهَا**»(٢).

---

(١) مسلم.

(٢) صحيح الترمذي.

إنَّها بِشارةٌ وهِبَةٌ مِن الله لنبيِّه محمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

لقَوْلِـه: «**أَبشِـرْ بِنورَينِ أُوتِيتَهُمَا، لَـمْ يُؤْتَهُمَا نَبِـيٌّ قَبلَكَ: فَاتحةِ الكِتَابِ،...**».

إنَّـه فُتِـحَ لها بـابٌ خَـاصٌّ لم يُفتح قبلها قـطُّ، ونَـزل بهـا مَلَـكٌ خَـاصٌّ لم يَنـزل إلـى الأرض قطُّ:

لقَوْلِه: «**هَذَا بَابٌ مِنَ السَّـمَاءِ فُتِحَ اليَوْمَ ولَـمْ يُفْتَح قَطُّ إلاَّ اليَوْمَ فَنَزَلَ مِنه مَلكٌ فقالَ: هذا مَلَكٌ نَزَلَ إِلى الأَرْضِ لم يَنْزِلْ قَطُّ،...**».

إنَّه بقِراءتها تحصُل المُناجاةُ في الصَّلاة بين العَبدِ وربِّه:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**مَنْ صَلَّى صَلاَةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأُمِّ الْقُرْآنِ فَهِىَ خِدَاجٌ** - ثَلاَثًا - **غَيْرُ تَمَامٍ**».

فَقِيلَ لأَبِي هُرَيْرَةَ إِنَّا نَكُونُ وَرَاءَ الإِمَامِ.

فَقَالَ اقْرَأْ بِهَا فِي نَفْسِكَ فَإِنِّى سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

«**قَـالَ اللَّـهُ تَعَالَى: قَسَـمْتُ الصَّـلاَةَ بَيْنِـي وَبَيْنَ عَبْـدِي نِصْفَيْنِ وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ.**

فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي.

وَإِذَا قَالَ: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي.

وَإِذَا قَالَ: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾.

قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي -وَقَالَ مَرَّةً: فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي-.

فَإِذَا قَالَ: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾.

قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ.

فَإِذَا قَالَ: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾.

قَالَ هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»[1].

إنَّه لا صَلاةَ لِمَن لم يقرأْ بها:

عَنْ عُبَادَةَ بنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

(١) مسلم.

«لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ»[١].

يُستجابُ الدُّعاءُ لمَن دعا اللهَ بها:

لقَوْلِه: «لَن تَقرأَ بحرْفٍ مِنْهَا إِلاَّ أُعْطِيتَه».

إنَّها رُقْيَةٌ شَافيةٌ بإذن الله تعالى:

عَنْ أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال:

«انْطَلَق نَفَرٌ مِن أَصحابِ النَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في سَفْرَةٍ سَافَرُوهَا، حَتَّى نَزَلُوا عَلَى حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ العَرَبِ، فَاسْتَضَافُوهُمْ فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمْ، فَلُدِغَ سَيِّدُ ذَلِكَ الحَيِّ، فَسَعَوْا لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ لا يَنْفَعُهُ شَيْءٌ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ:

لَوْ أَتَيْتُمْ هَؤُلاَءِ الرَّهْطَ الَّذِينَ نَزَلُوا، لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ عِنْدَ بَعْضِهِمْ شَيْءٌ، فَأَتَوْهُمْ.

فَقَالُوا: يَا أَيُّهَا الرَّهْطُ إِنَّ سَيِّدَنَا لُدِغَ، وَسَعَيْنَا لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ لاَ يَنْفَعُهُ، فَهَلْ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْكُمْ مِنْ شَيْءٍ؟

فَقَالَ بَعْضُهُمْ: نَعَمْ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْقِي، وَلَكِنْ وَاللَّهِ لَقَدِ

---

(١) مسلم.

اسْتَضَفْنَاكُمْ فَلَمْ تُضَيِّفُونَا، فَمَا أَنَا بِرَاقٍ لَكُمْ حَتَّى تَجْعَلُوا لَنَا جُعْلًا.

فَصَالَحُوهُمْ عَلَى قَطِيعٍ مِنَ الغَنَمِ، فَانْطَلَقَ يَتْفِلُ عَلَيْهِ، وَيَقْرَأُ: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فَكَأَنَّمَا نُشِطَ مِنْ عِقَالٍ، فَانْطَلَقَ يَمْشِي وَمَا بِهِ قَلَبَةٌ (أَي عِلَّةٌ)، قَالَ: فَأَوْفَوْهُمْ جُعْلَهُمُ الَّذِي صَالَحُوهُمْ عَلَيْهِ.

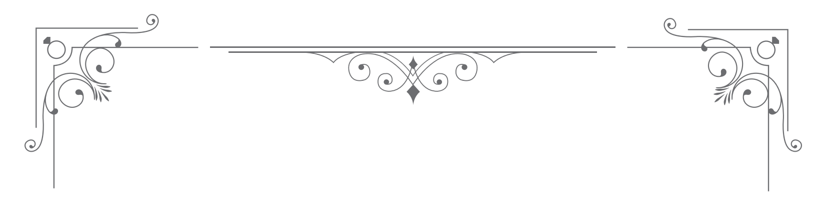
فَقَالَ بَعْضُهُمْ: اقْسِمُوا، فَقَالَ الَّذِي رَقَى: لَا تَفْعَلُوا حَتَّى نَأْتِيَ النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَذْكُرَ لَهُ الَّذِي كَانَ، فَنَنْظُرَ مَا يَأْمُرُنَا.

فَقَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرُوا لَهُ، فَقَالَ:

«**وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ**»، ثُمَّ قَالَ: «**قَدْ أَصَبْتُمْ، اقْسِمُوا، وَاضْرِبُوا لِي مَعَكُمْ سَهْمًا**»[١].



(١) البخاري.



معاني كلمات سورة الفاتحة

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾:

أبتدئ بكل اسم لله تعالى مُستعينًا به سبحانه وبِحمدِه.

﴿ٱللَّهِ﴾:

هو المألوه المعبود، المُستحق لإفراده بالعبادة، لما اتصف به مِن صفات الكمال والجلال والجمال.

﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾:

هو الثناءُ على الله بأسمائه الحسنى وصفاته العُليا، والشكر له بما أنعم على عباده مِن نِعَم لا يُحصيها غيرُه، فله الحمْدُ الكامل بجميع الوجوه.

رَبِّ:

الربُّ هو السَّيد المُربي الذي ربَّى جميعَ خلقِه بنعمتِه، فخلقَهُم ورزقَهُم ودبَّرَ معيشتَهُم.

ٱلْعَـٰلَمِينَ:

جمْعُ عَالَم وهو جميع ما خَلقَ الله.

ٱلرَّحْمَـٰنِ:

الذي وسِعتْ رحمتُه جميع خلقِه.

ٱلرَّحِيمِ:

الذي يرحمُ عبادَه المؤمنين.

مَـٰلِكِ:

الـذي اتصَـف بصفـة المُلـك التي مِـن آثارهـا الأمـر والنهي والتحليل والتحريم، فهو يملك كلَّ شيء.

يَوْمِ ٱلدِّينِ:

يوم الجزاء والحساب على الأعمال.

إِيَّاكَ نَعۡبُدُ:

لا نتوجَّهُ بأي عملٍ إلا لله وحدَه.

وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ:

لا نطلبُ العوْن والمساعدة في قضاءِ حوائجنا إلَّا مِن الله وحدَه.

ٱهۡدِنَا:

دُلَّنا وأرشدْنا وثبِّتنا على طريقِ الهدايةِ حتى لا نَضِل.

ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ:

هو الطريقُ الواضحُ الواسعُ الذي لا عِوَجَ فيه وهو دينُ الإسلام.

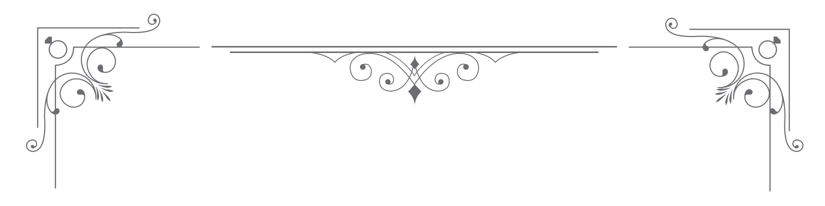
أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ:

بِنعمة الهداية إلى الإسلام، وهم الذين عَلِموا الحقَّ وعمِلوا به مِن النَّبِيِّين والصدِّيقين والشُّهداء والصَّالحين.

غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ:

وهم اليهود ومَن تشبَّه بهم.

وَلَا ٱلضَّآلِّينَ: وهم النَّصارى ومَن تَبِعَهم.



وقفاتٌ تدبُّريَّة مع سورة الفاتحة

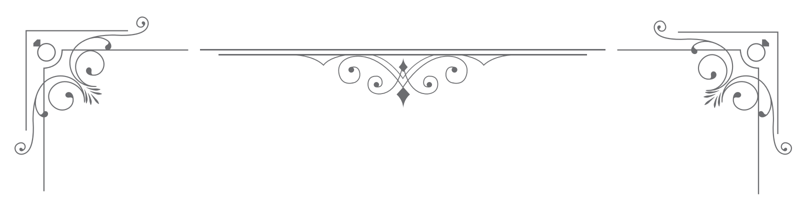
إنَّ المُتأمِّـلَ جيدًا فِي سـورةِ الفَاتِحَة، بآياتِها السَّـبْعِ الوَاضِحَة، ويشْتَمُّ عبيرَ عُطورِهَا الفائِحة؛ يرى أنَّها اشتملتْ على مَفَاتِيح لأبوابِ القرآن، كُلُّ مِفتاحٍ مِنها يفتحُ لك أبوابًا مِن السَّماء لِمعرَاجِ القلب إلى الله، لمُشـاهدةِ الملأ الأعلى في سياحةٍ قلبيَّةٍ، مِن خِلال سبعِ آياتٍ عظيماتٍ رائعاتٍ خاشعاتٍ نافعاتٍ، بإذنِ ربِّ الأرضِ والسموات؛ كأنَّهُـنَّ طَرَقَاتٌ على بـابِ القلبِ لِينْفَتِحَ على عالَمِ الغيْب، فيَسْـبَحُ القـارئُ المُتدبِّـرُ بقلبِه ورُوحِهِ فـي فَلَكِ الفاتحـة، فيُعطَى مفاتيحَها ويسْتنيرُ بنورِها ويتحقَّقُ بحقائقِ الإيمان فيها.

ففـي مَطلَعِهَـا ترى مِفتاحَ الحمْد، ثم في الآيـة التي تليها مِفتاح الرحمة، ثم مِفتاح العظمة، ثم مِفتاح العبوديَّة، ثم مِفتاح الهِداية، ثم مِفتاح الاتِّباع، وفي نهايتِها مِفتاح البراءةِ التامَّة مِن كُلِّ الأديان الباطلة والعقائدِ المُنحرفةِ والمذاهبِ المخالفة لدين الله عِلمًا وعمَلًا.



﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

مِفْتَاحُ الحَمْد



مِفْتَاحُ الحَمْد

هـو مِفتـاحُ الدخـولِ فـي عَالَـمِ الثَّنـاءاتِ علـى رب الأرض والسموات، التي لا يستحقُّها إلَّا هو وحده سبحانه، فشاء اللهُ عَزَّوَجَلَّ في هذه السُّورة أنْ يُعلِّمَ عِبادَه طريقةَ خِطابهم له ومُناجَاتهم إيَّاه، فإنَّ الداعـي ينبغي لـه أولًا أنْ يحمَدَ اللهَ تعالى ويُثني عليه؛ ليكون ذلك أدعى إلى الإجابة، فبدأتْ هذه السّورة بحَمْدِ الله والثَّناءِ عليه، ومَن أحسنُ ثناءً على الله مِن الله نفسه!.

الحَمْـدُ لِلَّـهِ: خيـرُ الدُّعـاء، كُلُّهـا حـبٌ وثَنَـاء، تمـلأُ الأرض والسَّـماء، تُرضِـي الرحمن، وتملأ الميـزان، وتُغيظ الشـيطان، بها مغفرة الذَّنبِ، ورحمة الربِّ، وتفريج الكربِ.

وقد ذَخَرَتْ سُوَرُ القرآنِ الكريم بالكثير مِن الآياتِ التي تحدثتْ عن حمْدِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فهناك خمس سور بدأت بـ«الْحَمْدُ للّهِ» وهي: [الفاتحة – الأنعام – الكهف – سبأ – فاطر] كما أن هناك ثلاث سور انتهت بـ«الْحَمْدُ للّهِ» وهي: [النمل – الصافات – الزمر]، بالإضافة إلى عشرات الآيات بين ثنايا السور تحدثتْ عن الحمْد.

ومما ينبغي للمؤمن أنْ يستحضِرَه في سَيْرِهِ إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وأن يشتغلَ به اشتغالًا دائمًا، ليل نهار لا يفتر؛ هو الحَمْدُ، هذا المعنى العظيم، هذا المِفتاحُ الكبير مِن مَفاتِيحِ الفاتحة، وهذا شيءٌ ضروريٌ لِكُلِّ مؤمنٍ أنْ يفهمَه أولًا، لأن كثيرًا مِن النَّاسِ يشتغلُ بالحَمْدِ لفظًا لا عملًا، بل يشتغلُ بنقيضِه عملًا.

فهناك كثيرٌ مِنَّا يقول: الحَمْدُ لِلَّهِ! ولكن للأسَف بِلِسَانِه فقط، ومِن ذلك صَلاته فهو يقرأ ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ في كل صلاة، ويَتلفَّظُ بِها عند نهاية طَعامِه، وعند حصوله على نعمة ما، وعند سؤالِه عن حالِه، إلى غير ذلك، وقد يستعمل ذلك على سبيل اللغو: يعنى أنه قد يقول هذه الكلمة دون إدراك معناها، وهذا يحصل كثيرًا، ولكن هذا لا يكفي، بل لا أقول لا يكفي فقط، بل هذا فيه نوع مِن قِلَّةِ الأدَبِ مع ربِّ العالمين، وذلك إذا كان فعله وشعوره يشتغل بعكس المعنى، يعني أنه لا يحمد الله جَلَّ وَعَلَا من الناحية العملية، بل يحمده باللسان فقط! أما بالعمل بمقتضى الحمْد فلا.

فكثيرٌ مِن النَّاس يقولون نحن حامدون لله وشاكرون له، وما هم كذلك، لأنهم لم يحمدوه بإحساسهم ووجدانهم وفِعالهم، فوجبَ علينا إذن أنْ نعرفَ الحَمْدَ ونفهمَ معناه، لأنَّه صلاتنا، فصلاتُنَا حَمْد، وسورةُ الفاتحةِ اسمها الحَمْد، وهي تدورُ على

حمدِ اللـهِ ربِّ العالميـن، ومِـن هنـا أحببـتُ أنْ أتحـدثَ عـن هذا المِفتـاح الأوَّل مِن مفاتيـحِ الفاتحة؛ مُتدبرًا لكتـابِ الله جَلَّجَلَالُهُ أو نتعاون جميعًا على تدَبُّرِ كلامِ الله، فمَنْ تدبَّر حق التدبُّر؛ فَتَحَ اللهُ له مِن أسرارِ وكُنُوزِ الفاتحة الشيء الكثير، هذه السورة التي نقرؤها كل يوم سبع عشرة مرة على الأقل، إمَّا أنَّنَا نقرؤها بأنفسنا، أو تُقرأ علينا مع الإمام، فإننا إذن نسـير بها إلى اللـه، فالحمْدُ أدبٌ مع الله عَزَّوَجَلَّ واعتراف لله بالربوبية.

والنَّبـيُ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كُلمـا أرادَ أنْ يدعـوَ ربَّـه أو أنْ يخطُـبَ النَّاس اسـتفتح بالحمْد، فكان يبدأ بحمْدِ الله والثناء عليه، وفي كل عبـارات الثناء على الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ يوجد معنـى الحمْد لله، والحمْدُ يجمع الشـكر والثناء، فهي لفظة جامعة، الشكر يكون على الفِعَال، والثنـاء يكون على صفـاتِ الجمال والكمال، فإذا أعجبتْكَ سـيَّارةً جميلـةً مثـلًا؛ فلن تقول لها شُـكرًا أَيَّتُهـا السـيَّارة، لأن طبيعة اللغة العربيـة تأْبَـى ذلك، والعقـل لا يقبلُه، والـذي تقوله حينهـا: هو أنْ تذكر جمالها وصفاتها الجميلة، هذا يُسمَّى ثناءً، تُثني على الجمال والجلال والصفات.

أمَّـا عندما يُقدّم أحدٌ لك المُسـاعدة، أو يُسـدي إليك معروفًا، فأنت تقول له: شُـكرًا، فالشكر يكون لمن صنع إليك معروفًا وقدَّم

إليـك خيرًا، ولكـن مَنْ لم يُقـدّم لك خيرًا ولا شـرًّا، وإنما أعجبك منظره وذكَرته بكلام حَسَن، فهذا يُسمَّى ثناءً.

فنحـن -المسـلمين- نُثنـي علـى اللـه جَلَّجَلَالُهُ لأنـه جميـل سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ولـه صفـات الجمـال والجـلال والكمـال، فهـو أهل للثنـاء، كما فـي الحديث الصحيـح: «**أَهْلَ الثَّنَـاءِ وَالْمَجْـدِ**،...»[١] الحديـث، المعنـى: أنـه سـبحانه بجمالـه وعظيم سـلطانه وجلاله مُسْتَحِقٌّ للحَمْد، وهو للحَمْدِ أهْل، مَن عَرفَه مِن خلقِه يُثني عليه بما هو أهلُه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، «فيجـب على كل مكلَّف أنْ يعتقد أنَّ الحَمْدَ علـى الإطـلاق إنما هو للـه وحـده وأنَّ الألف واللام للاسـتغراق لا للعهد، فهو الذي يسـتحق جميع المحامد بأسرها، فنحمدُه على كل نعمـةٍ وعلى كل حالٍ بمحامِده كُلِّها ما عُلِم منها وما لم يُعلَم... ثم يجب عليه أنْ يسـعى في خصال الحمْد وهي التخلُّق بالأخلاق الحميدة والأفعال الجميلة»[٢].

والإنسـانُ مفطورٌ على أن يُثني على الشيء الجميل، وهذا هو الأصل في الإنسـان وخاصة المؤمن المسلم، فإذا حمدتَ اللهَ فقد أثنيتَ عليه وشكرتَه، بما هو أهلُه ثم تذكر أنَّه خلقَك وأعطاك وأنْعَمَ

(١) مسلم.
(٢) القُرطبيُّ.

عليـك مِـن النِعَـمِ التي لا تُعـدُّ ولا تحصى، فتكون مِـن الحامدين، والحمْدُ أعلى درجات العبودية؛ لأنَّه يدل على العبودية الاختيارية، وهـي أرفعُ درجـاتِ العبودية؛ يعني أنَّ العبـدَ يكون في أفضل حال عندمـا يختـار أنْ يحمـدَ الله ويُثني عليـه ويشـكره، لأنَّ الحامدَ هو العابـدُ، والعابـدُ الحق لا يكـون إلا حامدًا لله، ولهـذا لا تكاد تجد دعـاء مِـن أدعية النَّبـي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا وقرنَهـا بالحَمْد أو سـبقَها أو لحِقَها أو ختمَها به، مِن ذلك:

◇ قولـه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أفضـلُ الذِّكـرِ لا إلهَ إلَّا اللـهُ وأفضَلُ الدُّعـاءِ الحَمْدُ للهِ**»[1] ومعلـومٌ أنَّ الدُّعاءَ هو العبادة، فبيَّن الحديث أنَّ أفضلَ العبادةِ حمْدُ الله تعالى.

◇ عَـنْ أنـسِ بـن مالـكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَـالَ: قَـالَ رَسُـولُ اللـهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن اللـه ليَرضى عن العبد أن يـأكل الأَكلة، فيَحمده عليها، أو يشرب الشَّربة، فيحمده عليها**»[2].

◇ عـن أنـس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: عَطَسَ رَجُـلانِ عِندَ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فشَـمَّتَ أحَدَهُما ولم يُشَمِّتِ الآخَرَ، فقيل له، فقال: «**هذا حَمِدَ اللهَ، وهذا لـم يَحمَدِ اللهَ**»[3].

---

(١) الترمذيُّ.

(٢) مسلم.

(٣) البخاري.

◇ عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**مَنْ قَالَ إذا أوى إلى فراشِه: الحمْدُ لله الذي كفَاني وآواني، الحمْدُ لله الذي أطعمَني وسقاني، الحمْدُ لله الذي مَنَّ عليَّ وأفضَلَ، اللهمَّ إنيِّ أسألُك بعزَّتِك أنْ تُنَجِّيَني مِن النَّارِ؛ فقد حمِدَ اللهَ بجميعِ محامدِ الخَلْقِ كلِّهم**»[1].

◇ عن عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كانَ رسولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا رأى ما يُحبُّ قالَ: «**الحمدُ للَّهِ الَّذي بنِعمتِهِ تتمُّ الصَّالحاتُ**»، وإذا رأى ما يكرَهُ قالَ: «**الحمدُ للَّهِ علَى كلِّ حالٍ**»[2].

◇ عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إذا ماتَ ولَدُ العبدِ قالَ اللَّهُ لملائِكتِهِ: قبضتم ولدَ عبدي؟ فيقولونَ: نعم. فيقولُ: قبضتُم ثمرةَ فؤادِهِ؟ فيقولونَ: نعم. فيقولُ: ماذا قالَ عبدي؟ فيقولونَ: حمِدَكَ واسترجعَ. فيقولُ اللَّهُ: ابنوا لعبدي بيتًا في الجنَّةِ وسمُّوهُ بيتَ الحمْدِ**»[3].

◇ عن أبي أمامة الباهلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**ألا أدُلُّك على ما هو أكثرُ من ذكرِك اللهَ الليلَ مع النهارِ؟ تقولُ:**

---

(١) السلسلة الصحيحة.

(٢) صحيح ابن ماجه.

(٣) صحيح الترمذي.

الحمدُ لله عددَ ما خلق، الحمدُ لله مِلْءَ ما خلق، الحمدُ لله عددَ ما في السمواتِ وما في الأرضِ، الحمدُ للهِ عددَ ما أحصى كتابُه، والحمدُ لله على ما أحصى كتابُه، والحمدُ لله عدَدَ كلِّ شيءٍ، والحمدُ لله مِلْءُ كلِّ شيءٍ، وتسبِّحُ اللهَ مثلهنَّ. تَعَلْمهنَّ وعَلِّمْهنَّ عقِبَك مِن بعدِك»(١).

◇ عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: دعا رجلٌ مِنَ الأنصارِ، مِن أَهْلِ قباءٍ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال فانطلقنا معَهُ، فلمَّا طعِمَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وغسلَ يدَيهِ، قَالَ: «**الحمدُ للَّهِ الَّذي يطعمُ ولا يُطعَمُ، ومنَّ علينا فَهَدانا وأطعمنا، وسقانا وَكُلَّ بلاءٍ حسنٍ أبلانا الحمدُ للَّهِ غيرِ مودعٍ ولا مُكافأً ولا مَكْفورٍ، ولا مُستغنًى عنهُ، الحمدُ للَّهِ الَّذي أطعمَنا منَ الطَّعامِ، وسقانا منَ الشَّرابِ، وَكَسانا منَ العُريِ، وَهَدانا منَ الضَّلالِ، وبصَّرَنا منَ العمَى، وفضَّلَنا علَى كثيرٍ ممَّن خلقَ تفضيلًا، الحمدُ للَّهِ ربِّ العالمينَ**»(٢).

كلُّ هذه الأحاديث والأحوال النبويَّة الشريفة؛ تجعلُنا دائمًا في صلةٍ مع الله في كل وقتٍ وحين، لِيُصبح الحَمْد خُلُقًا نتخلَّقُ به في جميع أحوالنا، فالتربية على حَمْدِ الله تعالى في كل الأحوال

---

(١) صحيح الجامع.

(٢) رواه أحمد شاكر في عمدة التفسير.

والأحداث والمواقف التي تمُرُّ بنا؛ لا شك سيكون لها عظيم الأثر ولا بُد في حياتنا وسلوكنا ونظرتنا للحياة.

ومِن آثارِ التخلُّق بحَمْدِ الله تعالى:

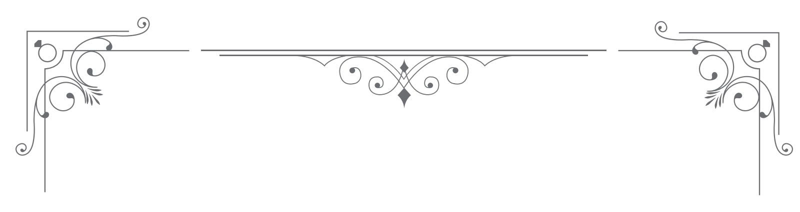
الرضا والقناعة: فدوام حمْد الله يزرع في نفس العبد الرضا والطمأنينة وراحة البال، لأن الحامد لربه قد رضي بما آتاه الله فلا يتطلع إلى ما عند غيره، فقولُه الحمْدُ لله؛ هي تسليمُ نفسه لاختياراتِ الله له، التي هي أفضلُ وأسلمُ وأجملُ مِن اخياراتِه لنفسِه، تسليمًا بحكمتِه، وثقةً بوعدِه، وتصديقًا بشرعِه، وركونًا للُطْفِه، واطمئنانًا لرحمتِه، لئنْ ابتَليتَ فلطالما عافيتَ، ولئنْ أخذتَ لطالما أبقيتَ، ولئنْ مَنَعْتَ لطالمَا أعْطَيْتَ، فانظر لمَن هو دونك؛ لتَعرِفَ نِعَمَ الله عليك، وترضى بما قسَم لك، وتَحمَده على ما أنعَم.

الصبر عند نزول البلاء: لأنه قد ربَّى نفسَه على حمْدِ بارئها في السراء والضراء، لأن دوام الحمْد دليلٌ على قوَّةِ الإيمان، والإيمان نصفه صبر والنصف الآخر حمدٌ وشُكر، وكان جزاء الحامد الصابر أن أمر الله ملائكته ببناء بيت له في الجنَّة ولأنَّه كان كثير الحمْد في الدُّنيا سمَّاه الله له «**بيتَ الحمْد**».



﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

مِفْتَاحُ الرَّحمة



مِفْتَاحُ الرَّحمة

هـو مِفتاحُ بَابِ اللهِ الأَوَّل الذي مَنْ طرَقَه فُتِحَ له، ومَنْ أعرضَ عنه نُودِيَ عليه، ثُمَّ نُودِيَ عليه، ثُمَّ نُودِيَ عليه، ثُمَّ إذا لم يُصغِ لِنِداءِ الرحمة تُحُسِّـرَ عليه، فاللـه عَزَّوَجَلَّ خَلَقَ الخلـقَ بالرحمة، وخلقَهُم للرحمـة، ورزقَهُم بالرحمـة، وهدَاهُم إليه بالرحمـة، وطلبَ منهم أنْ يعبـدُوه بالرحمة، حتى إذا ضلُّوا وكفروا ناداهم بالرحمة، وجدَّدَ عليهم النداء بالرحمة، ووسَّعَ عليهم أبوابَ الرحمة، عسى أنْ يتوبوا فينالـوا الرحمـة، ولم يجعل لإنسـانٍ البتـة اليأس مِـن رحمتِه حتى يُغَرغرَ، أو تطلعَ الشمس مِن مغربها.

ولمـا كان مِـن معاني قوله (الحَمْـدُ لله) هو احمـدوا الله حقَّ حمْـدِه، وكان العبـاد عاجزين عـن أنْ يوفُّوا ربَّهم حقَّـه في الحمْد؛ أتْبَع ذلك بقوله: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ومِن مقتضيات رحمته أنْ يقبلَ مِن العمل اليسير ويُجازي عليه الكثير فيقبلُ مِن عبْدِه أنْ يقولَ بقلبِه ولسـانِه وجوارِحـه (الحَمْدُ لله) ويكون ذلك أفضـل ما أنعمَ اللهُ به

علـى العبد أنْ وفَّقـه للحمْد، بل إنَّ توفيقه للحمْـدِ نعمة تحتاج إلى حمْد، فكيف سيُوفِّي ربَّه حقَّه إن لم يقبله منه برحمته وفضله وعفوه وتجاوزه لأنه ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾.

فبابُ الرحمةِ هو أوسعُ الأبوابِ إلى الله عَزَّوَجَلَّ على الإطلاق، فوصَفَ اللهُ نفسَه بـ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ وهما اسمان مِن أسماءِ اللهِ الحُسْنَى، ونُورَان مِن أنوارهِ العُلَيا؛ لِيعلم العباد جميعًا أنَّ رسالةَ اللهِ إليهـم (القرآن) إنما هو مِن أوَّله لآخـره رحمة، لأن البدء يدل على فحـوى الـكلام إذا كان المتكلم عالمًـا بأصولِ البيـانِ والفصاحةِ، وليـس أحـدًا أعلمُ باللغـةِ مِن خالقِهـا ومُبدعِها، والقـرآنُ نزل بلُغة العرب فلمَّا بدأ اللهُ كتابَه بالبسـملةِ وزيَّلها بـ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ دلَّ ذلـك على أنْ القرآنَ بحلالِـه وحرامِه وأحكامِه وحدودِه وشـرائعِه وتعاليمِه ووُعـودِه ووعيدِه؛ رحمة للعالميـن إذا اتَّبَعوه وعَمِلوا بما فيـه، فهو في كل الأحوال رأس الرحمة مِـن الله التي أنزلها للعباد، فبهذا القرآن الذي هو رأسُ الرحمةِ مِن الله عَزَّوَجَلَّ صَارَ محمدٌ رحمةً للعالميـن، وبهذا القرآن الذي هو رأسُ الرحمةِ مِن الله عَزَّوَجَلَّ صَارَ أصحابه أيضًا على قدر حُلُولِ القرآن فيهم رحماء بينهم، وشهد الله لهم بذلك، وبهذا القرآن الذي هو رأسُ الرحمةِ مِن الله عَزَّوَجَلَّ تصير الأمَّة في تراحُمها كالجسد الواحد.

وكُلُّ خيرٍ أنْعَمَ اللهُ به على هذه الأمَّة منذ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأصحابه مِن بَعده، فالتابعين، فالراسخين في العلم عبر التاريخ حتى اليوم، فالذين سيأتون بعدَنا مِن أهل العلم والفضل؛ كُلُّ أولئك وما وُفّقتْ إليه الأمَّة قديمًا وما تُوفَّق إليه اليوم، وما ستوفَّق إليه غدًا؛ كُلُّ ذلك داخِلٌ ضمن الرحمة التي جاءت مِن رحمة القرآن الكريم.

وللإشارة فقط اقرَءُوا سورة الكهف، وتحديدًا قصة موسى والعبد الصالح: ففيها كل فعلٍ مِن الأفعالِ التي قام بها ذلك العبد الصالح، والتي تظهر في ظاهرها أنها شيء فظيع، وذلك ما جعل سيدنا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يستنكرها، تلك الأعمال كلّها في النهاية خُتِمَتْ بقوله تعالى: ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾[الكهف: ٨٢].

- في النهاية: ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾.
- قتل الغلام: ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾.
- خرق السفينة: ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾.
- إقامة الجدار: ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾.

لذلك ينبغي أنْ نفهمَ أنَّ أسماءَ اللهِ الحُسنى وصِفَاتِه العُليا كلها تندرج تحت صفة الرحمة، ولذلك كان افتتاح القرآن بعد اسم الله الأعظم بصفة الرحمة، لأنَّ القرآن نفسَه صدرَ عن هذه الرحمة، لأنَّه

هو محْضُ رحمة، وإذا حلَّ في عبدٍ صار ذلك العبد رحْمَةً على قَدْرِ حلـول رحمة القرآن فيه، أي على قدر صيـرورة القرآن خُلُقًا له، ثم الناس بعد ذلك على حسـب درجاتهم في التخلُّق بالقرآن يصيرون كذلك درجاتٍ في رحمانِيَّتهم.

إنَّ الرحمـة فـي أُفُقِهـا الواسـع وامتدادهـا المطلـق صفة رب العالمين الذي سـمَّى نفسَـه رحمانًـا رحيمًا، وجعل رحمتَه تسـبقُ غضبَه، وشـمَل بها كل المخلوقات، ولذلك أراد الإسـلام أن يطبع النـاسَ بالرحمة الشـاملة، وأن يغـرس جذورَها فـي قلوبهم، حتى تمتلئ هذه القلوب خيرًا ونورًا، كما أمر الإسلام بالتراحم العام بين سائر العباد، وجعل ذلك مِن دلائل تمام الإيمان وكمال اليقين، قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ :

«لَنْ تُؤْمِنُوا حتى تراحمُوا قالوا: يا رسـولَ اللهِ كلُّنا رَحِيمٌ، قال: إنَّهُ ليس بِرَحْمَةِ أَحَدِكُمْ صاحبَهُ، ولَكِنَّها رَحْمَةُ العَامَّةِ»[١].

فليس المطلوب منك أيها الحبيـب الرحيم؛ أن تقصُرَ الرحمة علـى مَن تعـرف مِن قريـب أو صديـق، ولكنها رحمةٌ تسـع النَّاس أجمعيـن، بـل وتصل إلى الشـجر والطيْـر والدوابّ، وقـد ثبت في سـيرة الحبيـب النَّبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أنَّـه كان رحيمًا بالنَّـاس، وحتى

(١) نقله ابن حجر العسقلاني في فتح الباري وحكم عنه بأنه: رجاله ثقات.

بالحيوانات والجمادات وباقي المخلوقات، فمِن هنا نفهم أنَّ الإسلامَ يوسّع آفاق الرحمة حتى تشمل جوانب فسيحة مِن الحياة، وعددًا كبيرًا مِن الأحياء، وحتى يتحقَّق وعد الله تعالى الذي أخبر به رسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ**»(١).

فالرحمة صفة ربَّانيَّة عظيمة، وخَصلة نبويَّة كريمة، وعاطفة إنسانيَّة نبيلة، تبعث على فعل الخير، وتدفع إلى بذل المعروف، وتحث المؤمنين على التعاون والتضامن والإيثار، وتغرس في قلوبهم الرقَّة والرأفة والحنان، والرفق والعطف والإحسان، وتحقِّق فيهم الأخوَّة الصادقة التي أرادها الله تعالى بقوله:

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾[الحجرات: ١٠].

فأين الرحمة ممَّن يحملُ في قلبِه حقدًا وحسدًا وبُغضًا لإخوانه المسلمين؟

أين الرحمة ممَّن يؤذي النَّاس في بيْعِهم وشِرائهم؟

أين الرحمة ممَّن يحقّر النَّاس ويزْدريهم ويسخَر منهم؟

---

(١) صحيح الترمذي.

أين الرحمة ممَّن يؤذي المسلمين في أموالِهم بالسَّلبِ والنَّهْبِ والغِش والخديعة؟

أيـن الرحمـة ممَّـن يـؤذي المسـلمين فـي دمائهـم وأنفسـهم بالاعتداء والقتل وسفك الدماء؟

أين الرحمة ممَّن يؤذي النَّاس في أعراضِهم بانتِهاكِها والخوض فيها بالباطل؟

أين الرحمة بين العباد؟

فمِن النَّاس مَن يشبَع وجارُه جائع، فأين هي الرحمة؟

ومنهم مَن يلبَس أفخر الثياب وجارُه لا يجد ما يستر به عورته، فأين هي الرحمة؟

ومنهـم مَن يمتلـك العقارات الشـاهقة، والنـاس ينامون على الأرصفة، فأين هي الرحمة؟

فأين هي الرحمة التي أتى بها نبيُّ الرحمة صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ؟ وأين هو منهج الإسلام في التراحم بين المؤمنين؟

ومِن أحوج النَّاس إلى رحمتِـك إخوانُك، أخواتُك، أقرباؤك، تفقَّـد حوائجهم، صِلْ رحمَهم، لا مِن بـاب القرابة، ولكن مِن باب

الطاعـة والقربة والمحبة وابتغاء مرضاة اللـه ورحمته جَلَّ وَعَلَا، ففي الحديـث الصحيح قال رسـول اللـه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**قال اللهُ: أنـا اللـهُ وأنا الرحمنُ، خلقتُ الرحِمَ وشَـقَقْتُ لها مِن اسْـمِي، فمَنْ وصَلَهـا وصَلْتُهُ، ومَنْ قَطَعَهـا بَتَتُّهُ**»[١]، فكل ما تُقدّمـه لقرابتِك إنما يكون عن رحمةٍ أسكنها الله في قلبك.

ومِن آثارِ الرحمة التي أسكنها الله في قلبِك:

الرحمـة بالعصـاة والمُذنبيـن، فإنهـم يحتاجـون إلـى رحمـة التوجيه والهداية لطاعة الله، فهناك أناس مُذنبون عليك أنْ ترحمَهم وأنْ تأخـذَ بمجامع قلوبهم فتدلهـم على رحمة الرحمن تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وتحبّبهـم فـي طاعة اللـه ومرضاته ورحمتـه، وهذا مِـن أعظم آثار الرحمة التي أسكنها الله في قلبِك..

أن تحـرص على هداية العصـاة المُذنبيـن وإصلاحهم، تفعل ذلك وأنت تتمثّل قول النَّبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**يا أيُّها النَّاسُ إنَّما أنا رَحمةٌ مُهدَاةٌ**»[٢].

---

(١) صحيح ابن حبان.

(٢) صحيح الجامع.

ومِن آثارِ الرحمة التي أسكنها الله في قلبِك:

الرحمة بالفقراء والمحتاجين والضعفاء والأرامل والأيتام فلقد كانت رحمة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ بهذه الفئة من النَّاسِ؛ رحمةً نافعة لا ميز فيها، رحمة جالبة لكل خير، تهدف إلى إسعادهم سعادة حقيقيَّة لا زيف فيها ولا تزوير، حيث كان يأتي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ ضعفاءهم ويعُودُ مرضاهم، ويقضي حوائجهم، ويشهدُ جنائزهم.

وهذه هي رسَالةُ الإسلامِ في حقيقتِها، وهذا هو رسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ في حقيقته، إنَّ السببَ الذي جمعَ الناس حول رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ ليس أبدًا قوَّة السلطان، ولا سَطوة السّلاح؛ إنما الذي جمعهم حقيقةً - كما ذكر ربُنا جَلَّ جَلَالُهُ - هو رحمة الله التي ألَانَتْ قلبَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ حيثُ قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

واعلم أنه لا ينافي عموم رحمته ما يجريه على خلقه مِن النكبات التي هي عقوباتُه القدرية، ولا ما يفرضُه عليهم مِن العقوبات الشرعية، فإنها كلها رحمة وعدل اقتضته حكمته تأديبًا للجُناة ورحمةً بهم، وبمَن جنوْا عليه، وإيقاظًا للعُصاة الذين فرَّطوا أو أعرضوا عن شريعة الرحمن وهدي نبيِّ الرحمة عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وبسبب انتزاع الرحمة، قسَت القلوب، وتحجَّرت الأفئدة، وفَسَقَ النَّاسُ عن أمر الله، وانحرفوا عن الطريقِ القويمِ والصراطِ المستقيم، فكان ذلك مانعًا رئيسيًّا مِن الموانع التي حالت دون تنزُّلِ الرحمات والبركات مِن رب الأرض والسموات، فهلَّا استيقظنا مِن نوْمتِنا؟ وهلَّا قُمنا مِن غفلتِنا؟ وهلَّا صحونا مِن سكرتِنا؟

ولذلك كلُّ شيءٍ أنت في حاجةٍ إليه، أيها العبد، من الأول إلى الآخر، من أمور الدنيا ومن أمور الآخرة، تجده في باب الرحمة، دُق الباب، يُفتَح لك، فلن ترجع إلا بوافر مِن رحمة الله الرحمن الرحيم، هذا الإحساس أيها المؤمنون لا ينبغي أن يفارقنا ولو لحظة واحدة، وحين تعيش به تعرف حقيقة ثمن الإيمان الذي لا يُقدَّر، وثمن القرآن الذي لا يُقدَّر، وألَّا شيء يعدل إيمانك بالله ومحبتك لله وسَيْرك إلى الله جَلَّجَلَالُهُ.

الرحمةُ إذن أيُّها المُتدبِّر الكريم في خاتمة الكلام هي كلُّ ما نُشاهدُه في حياتنا نحن -المسلمين- من الخير ومن الشر الذي هو ظاهرٌ لنا، أمَّا باطنه فهو الرحمة، المصائب التي تقع للأفراد وللجماعات وللمؤسسات، المشاكل كلها هي لطمات كما ذكرنا من الرحمة الربانيَّة توقظ الإنسان، توجعُه أحيانًا، ولكن لتداويه وتشافيه وتقربه، ولذلك أي شيء في حياتك أيها العبد وجب أن

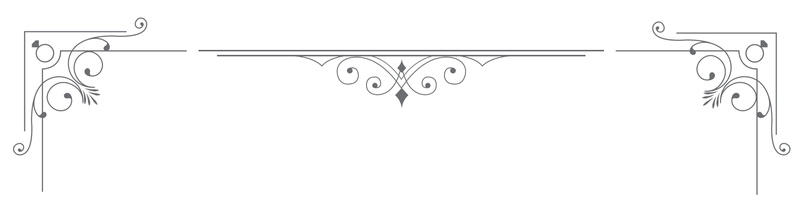
تتقبله بالرضى، بالمحبة، يعني ما أصابنا مِن الله فهو خير، لمَ؟ لأنَّك على يقين أنَّ ربَّك لا يؤذيك فهو ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، ما خلقك إلا للرحمة وبالرحمة، وما دُمْتَ تؤمنُ بالله ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فاعلم أنَّ الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ لن يأخذك إلا بالرحمة.





﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾

مِفْتَاحُ العَظَمَة



مِفْتَاحُ العَظَمَة

هـو مِفتاحُ الاطِّلاعِ علَـى عَالَمِ المُلكِ والملَكوتِ، ومُشـاهدةِ الآخـرة بأحداثِها وأهوالِها بعيـن اليقين؛ فإنَّ روحَ العبـادةِ وأصلهَا وجَلالهَـا وجمَالهَـا وبهَاءَهَا؛ في تعظيم اللـه جَلَّجَلَالُهُ، وأكثرُ النَّاس معرفةً بربِّهم أشدُّهُم له تعظيمًا وإجلالًا.

فمقصِد هذه الآية؛ تعظيمُ الله تعالى والتفويض إليه.

فأمَّـا تعظيم العبد لربِّه بذكر مُلكِه ليوم الدين؛ فتدُلُّ عليه لوازمُ هذا الوصـف العظيم ودلائلُـه الباهرة؛ التي تدُلُّ علـى عظمةِ مُلكه تعالـى، وكثرةِ جُنده، وكمالِ قوَّته وقهرِه لعبادِه، وقدرتِه على بعثهم بعد موتِهم، وسعةِ علمِه، فلا يعزُبُ عنه شيء، وإحاطته بكلِّ شيء، وإحصائه أعمال عباده، وسـرعة حسابه ومجازاته إيَّاهم، وعدله في جزائه، ورحمته وإحسانه لأوليائه، وعزَّته وشدَّة انتقامه مِن أعدائه،

وحكمتـه الباهرة في موافقة الجزاء للعمـل، وقدرته على توفية كلِّ عاملٍ جزاءه، إلى غير ذلك مِن المعاني العظيمة، والصفات الجليلة الباهرة؛ التي هي مِن أظهر معاني التعظيم لله العلي العظيم.

وأمَّا التفويض إلى الله تعالى فيدُّل عليه تلاشـي كلُّ مُلكٍ دون مُلْكِ الله تعالى، واضمحلال قدرة كلِّ أحدٍ على أن يَمْلِكَ لنفسِه أو لأحدٍ غيره شيئًا، فلم يبق إلا التفويض لله تعالى.

فالآية تدعـوك بكلِّ وضوح إلى تفويـض كل ذرَّةٍ فيك للمَلِكِ العظيـم، كما نـصَّ الحديثُ القُدسـيُّ علـى ذلـك: ودلَّ عليه أيضًا قـول الله تعالى في سـورة الانفطـار: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٨ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ١٩﴾ [الإنفطار: ١٧ - ١٩].

فيومُ الدِّين هو يوم التفويض التامّ، مِن جميعِ الأَنَام، إلى المَلِكِ العلَّام.

والمؤمـن إذا تلا هذه الآيـة مُعتقدًا معانيها عالِمًـا بمقاصِدِهَا؛ هداه ذلك إلى تعظيم الله تعالى والتفويض إليه؛ فينفعه هذا التعظيم والتفويض يوم يلقى ربَّه في ذلك اليوم العظيم.

والعظمَـةُ الكاملـةُ المُطلَقـة للـه جَلَّجَلَالُهُ، وهـي كَلِمَـةٌ جَامِعةٌ مَانِعـةٌ؛ جَامِعةٌ لِكُلِّ تعظيم يليـقُ بالمَلِكِ العَظيـم، مَانِعةٌ مِن دخولِ أي أحدٍ سـواه فيمـا يليقُ به عَزَّوَجَلَّ مِـن مُقتضيَاتِ المُلـكِ والعظمَةِ فمَن نازعَ المَلِكَ جَلَّجَلَالُهُ في مُلكِه وعظمَتِه وكِبريائه؛ ألبسَه اللهُ في الدُّنيا لِباسَ الـذُّل والعَار، وألقَاهُ يومَ القيامةِ في النَّار، ففي الحديث القدسي: «**الكِبريَاءُ رِدَائِي، والعَظَمَةُ إزَارِي، مَنْ نَازَعَنِي واحِدًا مِنْهُمَا أَلْقَيْتُه في النَّارِ**»(١).

فاللـهُ عَزَّوَجَلَّ عظيمٌ في ذاته، عظيمٌ في أسـمائِه وصفاتِه، عظيمٌ في مُلكِه وسُلطَانِه، عظيمٌ في خلقِه وأمره، عظيمٌ في عِلمه وكَلِمَاتِه، عظيـمٌ في دينِـه وشـريعتِه، ذلَّتْ لعظمتِـه المخلوقـات، وخضَعتْ لجبروتِـه الكائنات، المُلكُ مُلكُه وحدَه، له الأمر والنَّهي وله الخلق والحُكم.

فإخبـاره تعالى بأنَّـه مالِك هذا اليوم ينبغي أن يُثمر شـعورًا في القلـبِ بالـذُّل والفاقـة والاحتياج إلى هـذا المَلِـك المَالِك العظيم وذلـك أنَّه كُلمـا كان الأمر مهولًا شـديدًا وكان الخطـب فيه جليلًا

(١) صحيح أبي داود.

كان مالِـك هذا الأمر عظيمًا ذا هيبة في النفوسِ، تتطلع القلوبُ إلى رضاه واجتناب غضبه وسـخطه، فضـلًا عن أن يكون العبد مخاطبًا له حاضرًا بين يديه.

وليـس هنـاك مِن يـومٍ هو أشـدُّ هـولًا ولا أعظمُ كربًـا مِن يوم الدِّيـن فكانت الفَاقـة إلى مَالِكه أشـد والاحتياج إليـه أعظم وآكد، لـذا كان علـى العبـد الفقيـر الذليل إذا وقـف بين يدي هـذا المَلِك المَالِك الجليل؛ مُصليًا، ألَّا يلتفتَ بقلبِه فضلًا عن قَالَبِه إلى أمرٍ أقل خطبًـا أو إلى مالِـكٍ أصغر مُلكًا وهيبةً! فالله أكبـرُ مِن هذا الذي قد التَفـتَّ إليـه إذ إنَّه سـبحانه وبحمـده ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ ولعلَّك أيُّها الحبيب قد أدركتَ الآن سرَّ اختيار كلمة (ٱللَّهُ أَكۡبَرُ) ليفتتح بها العبادُ صلاتهم دون غيرها مِن سائر الأذكار، ليُقبلَ العبدُ على ربِّه لا على غيره.

وإذا تأملتَ أخي المُتَدبِّر هذا الكلام وجدتَه بيانًا لمعنىً مبثوث فـي كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وهو لا ينبغي بمَـن ءامن بالآخرة وما فيها مِن الجزاء على الأعمال بالثواب والعقاب؛ أن يلتفتَ لدَنَايَا هذه الحياة القصيـرة الحقيرة، بل يسـتعلي عليها كما يسـتعلي الرجُـلُ الحازم العاقل على تطلُعاتِ الأطفال التافهة.

لأنَّ اللـه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لـم يخلُق النَّـاس في الحياة الدنيـا عبثًا ولـم يترُكُهم سُدىً، بل هي مراقَبة على العبد، مُحصاة عليه لحظةً لحظةً، مسـئول عن كل وقـتٍ مِن أوقاتها فيمـا أفناه مِن عمـره فيها بين ليل أو نهار، ما عَمِلَ وما لم يعمل، وأن تصفية حسابها -صغيرِه وكبيرِه- واقـعٌ لا محالـة يوم الدِّين، ذلـك اليوم الذي هو غايـة الحياة الدنيا، والذي مِن أجله كان الخَلْقُ كلُّه، وكان الوجود كلُّه، والذي مِن أجله تعيش البشرية أعمارَها، عَلِمَ ذلك مَن عَلِمَه وجَهِلَه مَن جَهِلَه.

ولذلك كانت قراءة المسلم لهذه الآية في كل ركعة مِن صلواته إيقاظًـا له مِن غفلتِه، وتنبيهًا له مِـن رقدَتِه، وتذكيرًا له بحتمية وقوع ومَجيء اليوم الآخر، ولحَثِّه على الاستعداد له رَغَبًا ورَهَبًا، بالأعمالِ الصَّالحـة، تركًا للمعاصي وهُجرانًا للسـيئات، وفعـلًا للصالحات وإقبالًا على الطاعات.

﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾

المَلِـكُ، المَالِـكُ: هـو الذي يسـتغني في ذاتـه وصفاتِه عن كل موجـود، ويحتـاج إليه كل موجـود، والمَلِيك أكثر مبالغـة في تأكيد المُلـك للـه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، فهـو مَلِـكٌ، ومَالِـكٌ، وصاحـبُ المُلـكِ فـي الدُّنيـا، والملكوت فـي الآخـرة، والمَلِك هو صاحـب المُلك،

المتصرف فيما يملك تصرفًا مطلقًا مِن جميع الوجوه كما يشاء ويُقَدِّر.

وكونه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مَلِكًا ومالِكًا ليوم الدين، لأَنَّه المتصرفُ وحدَه فيه لا يُنازِعُه أحد، قطعًا لذريعة الجبابرة المُكابرين، الذين نازعوا اللهَ مُلكِه في الدُّنيا حتى ادَّعوا ما ليس لهم، كالنمرود الذي ادَّعى الألوهية فقال: ﴿ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُ ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وكفرعون الذي قال: ﴿ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓ ﴾ [الزخرف: ٥١]، ولذلك يُنادي ربُّنا عَزَّوَجَلَّ في الخلائقِ في ذلك اليوم: ﴿ يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ﴾ [غافر: ١٦]، يُنادي ويقول: ﴿ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ﴾؟ فيجيب نفسه أو تجيبه الخلائق: ﴿ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴾.

وقال النَّبيُّ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**يَطْوِي اللهُ عَزَّوَجَلَّ السَّمَوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطْوِي الأَرَضِينَ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟**»(١).

---

(١) متفق عليه.

والتركيز على حَاكِمية الله ومَالِكية الله ليوم الدين يُقارع مُعتقدات المشركين ومُنكري البعث، لأنَّ الإِيمان بالله عقيدة فطرية عامة، حتى لدى مُشركي العصر الجاهلي، وهذا ما يوضِّحُه القرآن إذ يقول: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦١] بينما الإِيمان بيوم الحساب ليس كذلك، فهؤلاء المشركون كانوا يواجهون مسألة البعث بعِنادٍ واستهزاء.

فالذي خلق الموجودات ورعاهَا وربَّاها، وأفاض عليها مِن نِعَمِه لحظة بلحظة، هو المَالِكُ الحقيقيُّ لها، فإذا كانت كل نِعَم الله تستحق الحمْد؛ فإنَّ ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ تستحق الحمْد ليل نهار، لأَنَّه لو لم يوجد يوم للحساب لنجَا الذي ملأ الدنيا شرورًا دون أن يُجازَى على ما فعل ولَكَان الذي التزم بالتكليف والعبادة وحرم نفسه مِن مُتع دنيوية كثيرة إرضاء لله؛ قد شَقِيَ في الحياة الدنيا، ولكن لأنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هو ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ أعطى الاتزان للوجود كله، هذه المِلكيَّة ليوم الدين هي التي حمَت الضعيف والمظلوم وأبقَت الحقَّ في كون الله، إنَّ الذي مَنعَ الدُّنيا أنْ تتحوَّل إلى غابة يفتِكُ فيها القويُّ بالضعيف والظالمُ بالمظلوم؛ هو أن

هناك آخرة وحسابًا، وأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي سيُحاسِبُ خلقَه على أعمالِهم صغيرها وكبيرها دقَّها وجليلها علانيتها وسرَّها.

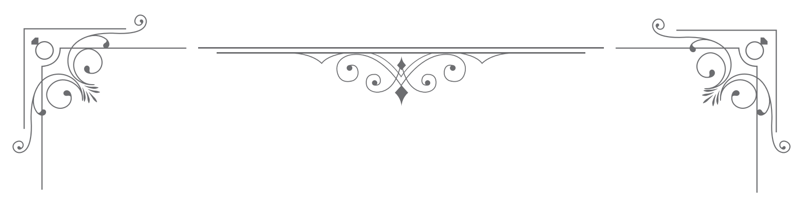
فيا أيتُها النفس الأمَّارة الجهولة! ليس أمامَك الآن إلَّا أنْ تفري إلى الله، وتعتصمي بحبلِه المتين، فالعواصفُ الهائجةُ على وشك الضرب بأغصانكِ الشاحبة! فإلى متى وأنتِ تُسَوِّفِينَ التوبة مِن يوم إلى غد؟! فكم مِن غدٍ بقي لك في أيامكِ المعدودة المحدودة؟! هذه أنوار ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ تضِيءُ لكِ علامات الطريق إلى الله، فاعقدي العزم على تحقيق الشهود القلبي ليومِ الدِّين، سيرًا إلى الله ربِّ العالمين، تنالي الخيرَ والنَّعيم وتَقي نار الجحيم.





﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾

مِفْتَاحُ العُبُودِيَّة



مِفْتَاحُ العُبُودِيَّة

هـو مِفتاحُ حقيقةِ وجودِكَ في الحيـاة، فلا ولن تصلُح القلوبَ ولا ولن تستقيم الجوارح بشـيءٍ مثل معرفة الله بأسـمائه وصفاته، تُـرى ماذا أثمرتْ تلك المعرفة بالإله العظيم في قلبِ العبد المؤمن بعـد مـا قرأ ما سبق مِـن آيـاتِ الوصـف والثناء علـى رب الأرض والسَّماء؟

لقـد أثمرتْ حُبًّا لله إذ هـو ربُّ العالمين، ورجاءً في رحمتِه إذ هو الرحمنُ الرحيم، وخوفًا منه وافتقارًا إليه إذ هو مالكُ يوم الدِّين.

فلمَّا أثمرت الآياتُ الكريمة هذه المعاني الجليلة في قلب العبد المؤمن؛ فكأنَّه اقتربَ مِن ربِّه وشَعَـرَ بحضور قلبِه بين يديه، فانتقل الحديـث مِن الغيْبة إلى الحضور بكاف الخطاب ﴿ إِيَّاكَ ﴾[1] وفي هـذا القرب وتلك المعرفة أصبـح العبد خاضعًا لربِّـه مُحبًّا لمولاه

(١) ابن كثير بتصرف يسير.

راجيًا لرضاه يبحث عن مراضِيه جلَّ في عُلاه فلم يجد إلَّا ما خَلَقَه ربُّه مِن أجلِه، وهي العبُوديَّة أو العبادة فيلهَجُ قلبُه وينطقُ لِسَانُه بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ لأنَّ اللهَ خلقَه مِن أجل ذلك فقال: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦].

إنَّها آيةُ الآيات، وأمُّ الْمُحْكَمَاتِ، وبَيِّنَةُ البيِّنَاتِ، ومجمعُ الدَّلالات لكلِّ آيات الوظيفة الإنسانية في كتاب الله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ إنها مِفتاحُ الفَهَم الحقيقيِّ لطبيعة الوجود البشريِّ كلِّه! وبابُ الدخول إلى فَلَكِ الوظيفة الإنسانيَّة الكبرى، المنتظمُ في مدارات الكون الفسيح، والضاربُ على هُدى الخالق العظيم سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

آيةٌ جامعةٌ مانعة! تُلخصُ قصةَ الخليقة الإنسانيَّة كُلها، مِن أوَّلها إلى آخرها، وجودًا ووظيفةً وغايةً، فلا استقامة على العبادة - ابتداءً - إلا بالاستعانة بالله، ولا ثبات على العبادة - انتهاءً - إلا بالاستعانة بالله، ولا بلوغ إلى رغائب الدين والدُّنيا جميعها، مِن أمور العادات والعبادات، وصلاح المَعاش والمَعاد، إلا بالاستعانة بالله! ولا انطلاق ولا وصول إلا بالاستعانة بالله، وبالله وحدَه دون سواه! ذلك إقرارٌ بعهد، والتزامٌ بميثاق، وشهادةٌ على النَّفس[1].

---

(١) فريد الأنصاري.

يغيب عن كثير مِن الطيِّبين الراغبين في الأجر العظيم والفضل الكبير؛ المعنى الصحيح للعبوديَّة الواجبة عليهم، ولذا فهُم يمارسون جزءًا مِن العبادة حسب فهمِهم ويتركون جزءًا مُهمًّا، وهنا كان لِزامًا أن نقف مع المفهوم الواسع الشامل الصحيح للعبوديَّة، فأقول مِن المعلوم أنَّ العبوديَّة نوعان: عامَّة وخاصَّة، فالعامَّةُ ما يشترك فيه المسلمون مما شُرِعَ لجميعهم مِن صلاةٍ وصيامٍ وحجٍ وذكرٍ ونوافل...إلخ.

أما العبوديَّة الخاصَّة فيقول عنها ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه إعلام الموقعين عن ربِّ العالمين:

«**ولله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ **على كلِّ أحدٍ عبوديَّة بحسب مرتَبتِه سِوى العبوديَّة العامَّة التي سوَّى بين عبَادِه فيها**».

وهي عبارةٌ دقيقةٌ جامعة، تُضيف أُفقًا في الفهَم والعمل والإصلاح في الحياة وتحتاج إلى بيانٍ وتوضيح، فإذا اشترك النَّاسُ في الواجبات والأحكام العامة بحُكم كوْنهِم مسلمين فقد خصَّ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ كل أحد مِن الخلق بحالةٍ مِن العطاء والمِنَح والمسئوليات تفرضُ عليه القيام بواجبات سمَّاها ابن القيم (**العبُوديَّة الخاصَّة**) وهذه العبُوديَّة ذو معانٍ مُغرِقَة فصَّلها فضيلة د. الشيخ عبدالرحمن الدوسري رَحِمَهُ ٱللَّهُ على النحو الآتي:

◇ أنَّ العبـادة هي كمالُ الطَّاعـةِ والانقيادِ لأوامرِ الله والانتهاءِ عـن زواجِره، والوقوفِ عند حدودِه، وقبولِ جميع ما ورد عنه على لسان نبيِّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دونَ ردِّ شيءٍ مِن ذلك أو إلحادٍ فيه.

◇ أنَّ التذلُّلَ والخشـوع في العبُوديَّة ناشـئٌ عن حُبٍّ وتعظيم، فمَن خضع لأحدٍ مع بُغضِه له لا يكون عابدًا له، ومَن أحبَّه ولم يخضع له بالقبولِ والانقيادِ لم يكن عابدًا له أيضًا، كمحبَّة الإنسـان لوالده، إذ لا بُـدَّ أن يقترنَ الحُبُّ بالتعظيم ليحصل الخضوع والانقياد، فلو حصلا بسبب الخوف والإرهاب لا يكون عبـادة، ومِن هنا وجبتْ محبَّةُ اللهِ ورسولِه وتعظيمها وتقديم محبتهما على كلِّ شيء.

◇ جميع أنواع العبادة مِن خوفٍ ودُعاءٍ وخشيةٍ ورجاءٍ واستعانةٍ واستعاذةٍ؛ لا يجوز شيء منها لغير الله وهو مُصادمٌ لمقصودِ الله في حصـره ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ كما أنَّه شِـركٌ مُخِلٌّ بمدلول الشهادتَيْن.

◇ إقامـةُ الحـدود والحكم بمـا أنزل اللـه مِن لـوازم عبوديَّتِه سـبحانه، وهما مِن صميم العقيدة؛ لأنَّ مَن عطَّل حدودَ الله، أو لم يحكم بشريعته فقد ابتغى غير الله حَكَمًا، فإنِ ادَّعى عدم صلاحيتها للعصـر، فإنَّه طاغوت تجب مُنابذتُه حتى تكون عبوديَّة اللهِ مُرتكِزةٌ على أصلٍ صحيح.

◇ لُـبُّ العبوديَّةِ الحـبُّ في الله، والبُغْضُ فـي الله، والموالاةُ في اللـه والمُعَـاداةُ فيه، فلا تجوز محبَّة شـخصٍ إلَّا فـي ذاتِ الله، ولأنَّه طائعٌ للَّه ورسولِه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

◇ رُوحُ العبوديَّـةِ التواصـي بالحـق والتواصـي بالصبر، ومِن مُقتضياتِهمـا الأمـر بالمعـروف، والنهي عن المنكـر، وقمع الظالِم المُفتـري، فمَن تخلَّى عن ذلك ولم يفعل قدر المُسـتطاع فقد أخلَّ بعبوديَّة ربِّ العالمين.

◇ عبُوديَّـةُ اللـه المَرضيَّـة تقتضـي حُسـن المعاملـةِ للخالـق والمخلوق، فيعاملُ الله ويراقِبُه حقَّ المراقبةِ كأنَّه يراه؛ ليرقَى بذلك إلى درجة الإحسان، وينال حظَّ المُحسنين، ويُحسِنُ معاملةَ الخلقِ أيضًا، بما يُحب أن يعاملوه به ليحقق الإيمان، ويكون أسوة صالحة مؤثـرة في دعوته، نافعًا لأُمَّته، ويكـون كل فرد منها مواطنًا صالحًا، فيتحقَّق لها الوِئام والكرامة.

◇ مِـن لـوازمِ العبوديَّـة الحَقَّة ألَّا يتقَّدم المسـلمُ بين يدي الله ورسـوله بأي تشـريعٍ يخالـفُ الكتاب والسُّـنة، مهمـا كان وحيث كان، ولا يقبـلُ ذلـك مِن أحدٍ ولا يُقرُّ أحدًا عليه، بل يُنكِرُه بحسـب اسـتطاعته ويتقرَّبُ إلى اللـه ببُغْضِ صاحبه وتكريـس جهوده للرَّد عليه ومعارضته بشـتى الطرق والأسـاليب، نُصرةً لله ورسوله دون

مُبالاةٍ بالدُّنيا وزينتِها، فإنَّ مِن الإيمان الفِرار بالدِّين مِن الفتن.

◇ مِن كمال العبوديَّة أن يكون اللهُ ورسولُهُ أحبَّ إلى العبد ممَّا سِواهُما، فلا يُفضِّلُ على طاعةِ الله وابتغاء مرضاته أولادًا ولا أبًا ولا أُمًّا ولا إخوانًا ولا أزواجًا ولا عشيرةً ولا موطنًا ولا مالًا ولا سكنًا ولا ضيْعةً، فتفضيلُ شيءٍ مِن ذلك على مرضاةِ الله ومحبَّتِه والجهادِ في سبيله؛ مُخلٌ بالعبُوديَّة وسالبٌ الإيمانَ أو مُضعِفٌ له.

◇ عبوديَّةُ اللهِ تُوجِبُ على صاحبِها الصدقَ في القولِ والعملِ، بحيثُ لا يخالفُ النَّاسَ إلى ما ينهاهم عنه أو يأمُرُهم بما هو مُنسلِخٌ منه، فيكون أُضحُوكةً ومثلًا سيئًا لعدوه وصديقه.

◇ القيام بحقِّ العبوديَّةِ يُوجِبُ العملَ المتواصلَ بكُلِّ جِدٍّ ونشاطٍ على تحقيقِ الوَحدَة الإنسانيَّة جمعاء تحت إطار الدَّين، إذ بتحقيقِ العبوديَّة لا تنشأ العصبيات والقوميات المُفرِّقة بين الأجناس والأقاليم، ولا الحدود المُصطنعة، لأنَّ كلمةَ التوحيد المُستكمِلة لمعانيها يجبُ أن تشملَ جميع الأرض ولا يعلوها أحدٌ ولا تعترف بحدود ولا تجزئة، فلا تُحقِّق أمَّةُ القرآنِ معنى: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ حتى يعملوا العمل المتواصل لتكون كلمة الله هي العليا في سائر المعمورة، لا يحول بينها حدود ولا سدود، فأهلُ القرآنِ هم المسئولون عن التقصير في

ذلك، إذ لو ألهَبوا حماس الشعوب بواجبهم الديني ودفعوهم إلى الاستعداد بكل قوَّةٍ وتسخير كل شيء فيها؛ لما استطاع أن يصدَّهم عن ذلك شيء.

◇ عبوديَّةُ الله تُوجِبُ على صاحبِها الاستجابة لجميع نداءاتِ الله في كتابِه العزيز، على اختلافِ أنواعِها وأساليبِها دون إهمال شيءٍ منها أو التراخي فيه، وهي تقرُبُ مِن مائةٍ وثلاثةٍ وعشرينَ نداءً، بعضُها بـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، وبعضُها ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ وبعضُها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فمَن لم يستجِبْ لكلِّ نداءٍ يُناديه به ربُّه فليس مُحققًا للعبوديَّة المطلوبة في هذه الآية، وكيف يكون عابدًا لله مَن لا يستجيب له وهو يدعوه لِمَا يُحييه حياةً طيبةً في الدُّنيا، ويُنجِّيه في الآخرة مِن العذاب الأليم، لا شك أن مَن لم يستجِبْ لنداءاتِ ربِّه عاصٍ له مُناقض في سيرته لجميع مدلول سورة الفاتحة مِن: حُبِّه، وتعظيم أسمائه، والتعلُّق به، والقيام بشكره وحمده، والإيمان ببعثه وحسابه، ورجاء رحمته، والخوف مِن عذابه، والقيام بأوامره، واجتناب نواهيه، فأصبح غير مُحقِّقٍ لعبوديَّتِه المطلوبة فيها، وهذه أكبرُ بليَّةِ المسلمين أنَّهم انصاعوا لنداءِ مَن يُهلكُهم كالشَّاءِ تنصاعُ للجزَّار.

◇ العابدُ لله حقًا يكون مُعظِّمًا لشعائرِ دينه، مُقدِّسًا لأحكامِه وتعاليمِه، لا يصرِفُه عنها أو يُنفِّره منها عبث العابثين مِن حُكماء وعُلماء يتلاعبون بالنصوص أو يتهاونون في تطبيقِها، فيُحمِّل الدين آثامهم، والدين موتور بهم كما وترت بهم شعوب الأرض.

◇ عبوديَّةُ اللهِ تُوجِبُ على أهلها ألَّا يعيشوا بإيمانٍ أعزل أمامَ إلحادٍ مُسلَّح، بل يسعوْن غاية السعي بكل مجهود؛ ليكونوا أقوياء مُسلَّحين بجميع أنواع الأسلحةِ الأدبيَّة والماديَّة والمعنويَّة؛ ذوي خبرةٍ بفنون الحرب الباردةِ والكاوية؛ ليدفعوا الإلحاد في أي ثوبٍ ظهر، ويقمَعوا أهلَه باللسانِ والسَّنان، ويكسِروا أسلحتَهم ويفضَحوا فريقَهم، وإذا برَدَ سِلاحُهم لسببٍ مِن الأسباب وجَبَ ألَّا تبرَدَ ألسِنتُهُم ولا تجِفَّ أقلامُهُم، وإلَّا لم يُحققوا عبوديَّةَ اللهِ المُنجية لهم مِن خِزي الدُّنيا وعذابِ الآخرة، وسقطوا وانهزموا أمام كل مُبطل.

◇ في حصر الضَّراعة الصادقة بـ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ تخليص للنفس مِن عبادة آلهةٍ شتَّى، وتحرير لها مِن رِق الهوى والشهوات وارتفاع بها مِن الأنانيَّةِ والانتهازيَّةِ إلى شرف الصدق والإخلاص، المكوِّن للإنسانية الحقَّة، وإذا حصر العبدُ اتجاهَه إلى الله في سائر نواحي حياته وجميع أموره فقد خلَّصَ

نفسَــه مِن كل رقٍّ وأســر، وكان قلبُه خاليًا مما سِــوى الله ومُنشــغلًا بحبِّ الله ورســولِه وتعظيمِهما، فلا يكون لشــياطين الجن والإنس عليه ســبيل، فيتحرك حيث أمره الله مُستجيبًا لله لا يحركه أحد مِن شياطين الإنس، ولا يستجيب لأحدٍ مِن طواغيت البشر المُضلِّلِين، الذيــن يلعبــون علــى العواطــف بشــتى أنــواع الدجَــل والتلبيــس، ويُوجّهون النَّاس إلى ضروبٍ مِن الجاهلية الجديدة، باســم القوميَّة الفُلانية تارة، والمذهب المادي الفلاني تارة، والحركة الثوريَّة تارة، والمبدأ الفلاني تارة، وغيرها مما زادت به فتنتهم، وفي كل مجتمع لا يُحقِّق أهلُه القيام بمدلول هذه الآية التي هي محض معنى (**لا إله إلا الله**).

◇ فلا نجاة اليوم مِن همزات شــياطين الإنس وطواغيتهم إلا بتحقيق ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ بجميع معانيها ومبانيها، لأن المحقق لــ ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾، لا يغلبه أحُد بإذن الله، فالذي يريدُ أو يعملُ على إقصاءِ الإســلام وعزل القرآن عن الحُكم ليس عابدًا لله ولا مستعينًا به وفق هذه الآية، بل هو مُعين على نفسه أعداء الإسلام الذين هم أعداؤه، فيكون خادمًا لأغراضهم المُضادة للوحي مِن حيثُ يشعر أو لا يشعر.

◇ عبوديَّةُ الله تقتضي التأسِّي برسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في كلِّ شيءٍ وفي كل ناحيةٍ مِن نواحي الحياة، وأن يتَّبِعَ المسلمُ سُنَنَه، ولا يتعلَّل بقَصر العمل والحجَّة على القرآن وحدَه، فإنَّ هذا عملُ الزنادقةِ الذين يُريدون مسخَ الإسلام، والإطاحة بشطره الثاني **(السُّنَّة)**.

◇ الابتهال إلى اللَّه بـ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ يجب أن يكون صادرًا عن محبَّةٍ صادقةٍ لله، الذي يجب أن يكون أعلى وأغلى محبوب، وذلك بداعي الفطرة والشرع والعقل الصحيح، فإذا صدر ذلك عن محبَّةٍ صادقةٍ حصل مفعوله الذي لا يقاومه شيءٌ في الدُّنيا مهما كان ذلك.

◇ يتضح في حصر الابتهال إلى الله بـ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ تحقيق لتوحيد الألوهية بجميع معانيه، والقيام بواجب العبوديَّة مِن جميع صنوف العبادات التي تنتَزِعُ النَّفسَ مِن التعلُّق بماديَّات الحياة، وتوجِّهُهَا إلى خالقِهَا وفاطِرهَا، لتستمدَّ منه النُّور، وتستعين به على تسخير الماديَّات مِن أجل نُصرة دينه، وعلى الوجه الذي يُرضِي الله.

◇ الابتهال إلى الله بـ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ يستلزم مِن صاحبه تجديد حياته كل ساعة بمراقبة الله وخشيته والرجوع

إليه بالتوبة والاستغفار، والتزام حكمه في كلِّ شيء، لِئلَّا يتعثَّر في سيْره، أو يستمر على تعثُّرِه بدوام مَيْله مع الشهوات واقترافه للدَنايا بسبب إثرته التي لا ينجيه منها إلا تصديق ذلك الابتهال بالعمل، وحُسن المراقبة ودوام الاستغفار الصحيح وصدق الاستعانة بربِّه، حتى لا يَكِلَه إلى نفسِه ويدَعَه حيرانَ يتخبَّط في ضلال حيْرته، ويدور في حلقات مُفرغة مِن التجارب المُخفِقة المُضيِّعة لوقتِه وطاقاته.

◇ هذا الربُّ الجليلُ العظيمُ المُتفضِّلُ الكريمُ هو الذي يستحقُّ أحسنَ المعاملةِ مِن طاعةِ أوامره عن رغبةٍ ومحبَّة، واجتناب نواهيه عن خوفٍ وحذر، وتنفيذ تشريعاته، وإقامة حدوده، عن تشرُّفٍ وتَطَيِّب، معتقدًا أحقِّيتها، ونجاح علاجها للمشكلات دون ما سواها أبدًا، مُقتصِرًا على طلب الهداية وسائر أنواع التثقيف مِن وحيه الكريم، كتابًا وسُنَّة، ويكون مُراقبًا لله في سائر حركاته وتدبير شئونه، وبذلك يكون عابدًا لله حقًّا، ويهديه الله للصدق باستعانته به في كلِّ شيء.

◇ إن بصدقِ الضَّراعة إلى الله بهذه الآية قولًا وعملًا وقصدًا، ينال الإنسان أهليته مِن كرامة الله في الدُّنيا والآخرة، فإنَّ الله خلقَه ليُكرِمَه ويُسَوِّدَه في الأرض، فإذا عصى اللهَ وطاوع الشيطان -أيُّ

شـيطانٍ مُبتعد عن وحي الله وأمره- فقد سـعى في إهانةِ نفسِه بدَلَ كرامتها، وفي رقِّها لكلِّ شـيطان بدلًا مِـن تحريرها لله وحدَه، وفي تأخير منزلتها وجعلها ذنبًا للغير، بدلًا مِن رفعتها وسؤدَدِها.

تكـرار الضَّراعـة الصادقـة مـع اللـه بــ ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ يجعـل المؤمـن صلـب العـود، صاحـب قُـوَّةٍ وجَلـد، لا يميـل مـع كلِّ ريح، ولا يضعف أو يلين أمـام أي قوَّة، ولا ينحني مـع أي خلة ولا يندهش أمـام أي مفاجأة، أو يحزن عند أي مصيبة؛ لتوجهـه إلـى اللـه بكُلِّيتِه، واعتمـادِه عليه فـي كلِّ نائبة، واحتسـابه العـوض منه عن كلِّ شـيء، فحبيبُـه الأوحد هو اللـه، وهو ذخيرتُه وملجؤه، وهو هدفُه وغايتُه، وبذلك تكون شجاعته كاملة، وبطولته خالـدة، وأخلاقـه فاضلـة، وصبره معينًـا لا ينفذ، بخـلاف ما عداه مِـن أهل الهوايات الماديَّة، والغوايات النفسـيَّة، فإنَّهم وإن كان في بعضهم شـجاعةٍ وصبرٍ واسـتخفافٍ بالنوائب، فإنَّهـم لا بُدَّ أن تنال منهم الأحـداثُ مأربَها ويلويهم خصمُهم على مـا يريد في أدنى ما يُصابون به مِن كوارث.

◇ العابدُ لله يتخذ الله هاديًا ونصيرًا وحاكمًا ووليًّا، فلا يطلب الهدايـة مِن غير وحـي الله، بل يعتبر جميع الأوضـاع التي لم تركز على وحيه بدعةً وفِريةً، وأملًا وتشـكيكًا مِن وحي شـياطين الإنس

والجـن وطواغيتهـم، فـلا يطلب النُّصـرةَ إلا مِن اللـه، ويجتهد في الاستعداد وتسخير القوى مُعتمدًا على الله، ولا يبتغي غيرَه حكمًا، ولا يرجـو مِن سـواه نصرًا ولا يسـمح بفراغ، أو يُضيِّـع لحظةً دون عملٍ لنصرةِ ربِّ العالمين.

◇ تحقيق عبادة الله هو المقوِّمُ الأعلى لحياةِ الإنسان، وبقدر قيامه بها يُقاس صعودُه أو هبوطُه، وسعادتُه لا تتحقَّق دون تحقُّقِها، ودون عبادة الله الصحيحة ينحدُر في صفاته الإنسانيَّة، وفي تصوراته للقيم الإنسانية؛ لأنه يكون عبدًا للماديات، وعبدًا للشهوات، وعبدًا للآلة، أو تابعًا ذليلًا مِن توابعها، فينحطُّ في تصوُّرِه وأخلاقِه، ويهبِطُ فـي عَلاقَاتِه الجنسـيَّة إلى أحطِّ مِـن حالة البهيميَّة، وتـراه لا يعرف سوى صَخَب الأسواق ودخان المصانع، وأزيز الماكينات.

◇ صـدق الاسـتعانة بالله يـورث طمأنينـةَ القلب، وسـكونَ النفـس؛ لأن ذلك مِـن آثار صدق الإيمان وقوَّتِـه، وإذا اطمأنَّ قلبُ الإنسـان وسـكنتْ نفسُـه؛ حصل له بَـرْدَ الراحة، وحـلاوةَ اليقين، وسَلِمَ قلبُه ممَّا ينتاب قلب غيره مِن الخطرات الفاسدة، أو المُفزِعة أو المُخذِلـة، فـكان يسـتقبل الأهـوال بشـجاعة وثبـات، لا يبالـي بالخطـوب إذا اعتـدت، ولا يلويـه شـيطانُ الهوى والشـهوات عن الإقـدام على الأهوال، أو الثبات أمام الخطوب، لاسـتمداده العون

مِـن ربِّـه الذي صـدق معه فـي ضراعته باسـتعانته، فهو يرى نفسـه موصولًا مِن الله بالمدد الروحي والمعنوي، ويؤمن بأن الله يفتح له كل مُغلَق، فلا يعتريه اليأس، أو يتسرَّب إليه الجزع، ولا يصيبه شيء مِن الضعف أو الحيرة؛ لأنَّه في كَنَفِ الله وعزَّته ونورِه.

◇ وكلُّ مَن صدقَ هذه الضراعة بفعلِه وحُسـنِ قصدِه، حصل مِن الله على المعيَّة والنُّصرة والتوفيق، أمَّا مَن كان نُطقُه بها وتكريرُه لها عـادةً تقليديَّة موروثة، كحالِ أكثر النَّـاس اليوم فحظُّه منها على حسـب تطفيفـه مع اللـه، بعـدم الغيرة لدينـه، والغضـب لحرماته، وعدم الدفع برسـالته، والجهاد والإنفاق في سـبيله، وعدم مساندة المسـلمين وحبهم، وبغض الكافرين وحربهم، فمِن هذه المواقف السـلبيَّة تترتَّب فوائـد الآية، وثمرة نتائجها، وفـي الأثر: (كما تدين تـدان). أمـا بحصـول ما ذكرنـاه مِن صـدق المُبتهِل بهـا عمليًا فإنَّه يتحفَّز للقيام بواجب الله، وحمل رسـالته، وتنفيذ وصاياه، والعمل على إعلاء كلمته بالحُكم بشريعته.

◇ تعليـم اللـه للمؤمنيـن هـذه الضراعـة ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ بصيغـة الجمع، وكون الفرد منهـم مُلزَمًا بهذه الصيغة، فيه إعلامٌ مِن اللهِ مؤكدٌ بالتذكير بأن هذا الدِّين الإسـلامي الحنيف هو الرابطة الوحيدة بين المسلمين على اختلاف أجناسهم ولغاتهم

وتباعد أقطارهم وبلادهم، فهو الذي يجعل جميع الأمم الإسلامية كمجتمعٍ واحدٍ وأسـرةٍ واحدة؛ حتى يُصبِحوا بهـذه القوَّة المُتكتِّلة كالجسدِ الواحد.

◇ الصـادق بضراعتِـه إلـى اللـه بــ ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ يعتني غايةَ الاعتناء بسلامة قلبه، وذلك:

① بتصفيتِه ممَّا يرِدُ عليه مِن الهمسَاتِ والخواطِرِ التي تفتنُه بشُبهةٍ أو تشغلُه بشهوة.

② وتصفيتُه ممَّا يُقذفَ عليه مِن الآراء والنظريات العَفِنة.

③ ومِـن فسـاد المقاصـد وهـي ما يكـون لغير اللـه مِن كلِّ غرضٍ وشهوة.

④ وتصفيته مِن مُثبطاتِ الهمم.

⑤ ومِن التعلُّقِ بغير الله أو إيثار شـيءٍ على مُرادِه سـبحانه، ولو أقرب قريب أو أنفس نفيس في الدُّنيا.

⑥ وتصفيته مِن اسـتعذابِ شيءٍ فوق اسـتعذابِ عبادة الله بأيِّ أنواعها، أو عُذوبة كلامه وكلام رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ.

⑦ ومِن التعلُّقِ بجمالِ شـيءٍ يُنسِـيه جمالَ اللهِ ولذَّةَ قُربِه، بل

إذا أعجبه جمالَ شيءٍ ذكرَ جمالَ اللهِ الذي جميعُ ما في الأكوان مِن جمالٍ؛ فهو أثرٌ مِن آثارِ جماله، وكُلما استمتع بمحبوبٍ أو استلذَّ بشهوةٍ؛ زادت محبتُه لله الذي وهبها، وزاد تعلُّق قلبه بعبادتِه وحُسن مراقبته.

⑧ وتصفيته مِن إجلالِ غير الله، والخوفِ مِن غير الله أو رجائه، أو قصر محبته عليه أو تفضيلها على حبِّه.

فجاءت ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ليُعلِنَ العبدُ بذلك أنَّه فقيرٌ عاجزٌ أن يقودَ نفسَه إلى ربِّه فيستعينُ به سبحانه على عبادتِه أن يوفقَه لامتثالِ أمره ويحفظَه مِن اقترافِ نهيه.

هذه الآية العظيمة ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ يطلبُ بها العبدُ رضا الله عَزَّوَجَلَّ لذلك ينبغي أن يكون العبد على معرفة بحقيقة هذه الآية ومفهوم تلك العبودية، هذه العبادة كما عرَّفها ابنُ تيميَّة «هي اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يحبُّه الله ويرضاه مِن الأعمالِ والأقوالِ والأفعالِ الظاهرةِ والباطنةِ».

وهذه الأعمال تكون مع غاية الحبِّ والذُّلِّ والتعظيمِ فتعبُد اللهَ حبًّا وتعظيمًا له وذُلًّا إليه وهي في الظاهر إذعانُ العبد وقبوله وعدم عصيانه واعتراضه لكل ما أمرَه به ربُّه أو نهاه عنه ويشترك معها

عبوديَّة القلب وهُما لا يجتمعان إلَّا للمؤمن وهي اعترافُ المؤمن بعُلُو شأن ربِّه وامتلاء القلب بعواطف الشكر والامتنان على نِعَمِهِ وآلائه فتكون العبوديَّة قلبًا وقالبًا.

واعلم أيُّها الحبيب -جعلنا الله وإيَّاك مِن عبيده وحده- أنَّ مَن لم يصرف ذلك لله صرفه لغيره ولا بُدَّ، فإنَّ الإنسانَ خُلِقَ بطبيعتِه عبدًا وبقدر تخلِّيك عن عبادةِ ربِّك تكون عبادتُك لغيره، فاختر لنفسِك مَن تعبُد؟!

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وكمالُ المخلوق في تحقيقِه عبوديَّتَه لله، فكُلما ازدادَ العبدُ تحقيقًا للعبوديَّة ازداد كمالُه وعَلتْ درجتُه»، ويقول أيضًا: ولا بُدَّ لكلِّ عبدٍ مِن مُراد محبوب هو منتهى حبُّه وإرادتُه، فمَن لم يكن الله معبوده ومنتهى حبُّه وإرادتُه؛ بل استكبر عن ذلك فلا بُدَّ له مِن مُراد محبوب يستعبده غير الله، فيكون عبدًا لذلك المُراد المحبوب؛ إمَّا المال وإما الجاه وإما الصور»[1].

فالذي يصرف العبادةَ لله وحدَه هو الذى يطمئنَّ قلبُه ويتوحَّدَ مقصودُه لأنَّه يعبُدُ إلهًا واحدًا.

أمَّا الذي لا يوحِّد اللهَ بالعبادةِ فسوف يعبُدُ غيرَ اللهِ وتتفرَّق

(١) رسالة العبودية لابن تيمية.

به السُّبُل، يقول صاحب الظلال: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ هي كُلِيَّة تُعلنُ ميلاد التحرُّرِ البشريِّ الكامل، التحرُّرُ مِن عبوديَّةِ الأوهام؛ التحرُّرُ مِن عبوديَّةِ النظام؛ التحرُّرُ مِن عبوديَّةِ الأوضاع، لأنَّ الله وحدَه هو المعبود وهو وحده المُستعان».

وقد ذكرَ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ هذه العبادة بعدما ذكرَ مِن صفاتِه ما يدل على الحبِّ وعلى الخوف وعلى الرجاء؛ لأنه لا بُدَّ للعبد مِن ذلك في عبادته فمَن عَبَدَ اللهَ بالرجاء فقط فهو مُرجئٌ[1]، ومَن عَبَدَ اللهَ بالخوف فقط فهو حَرُوريٌّ[2] ومَن عَبَدَ اللهَ بالحُبِّ فقط فهو زنديقٌ[3] ومَن عَبَدَ اللهَ بالحُبِّ والخوفِ والرجاءِ فهو مؤمنٌ مُوحِّدٌ جعلنا الله وإيَّاكم مِن المؤمنين الموحدين[4].

وإذا علِمتَ ذلك أخي القارئ فاعلم أنَّ في هذه الآية مِن محَاسِنِ البيَانِ وحُسنِ الصيَاغَةِ الشيء الكثير ومِن ذلك:

---

(١) مِن الإرجاء: وهو التأخير والإمهال، وهم فرقة تعتقد بأن الإيمان قول بلا عمل، أي إخراج الأعمال مِن مُسمَّى الإيمان، وأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص.

(٢) فرقة الخوارج، نسبة إلى المكان الذي خرجوا فيه على سيدنا عليّ، يقال له: «حرُورَاء» فسموا بذلك.

(٣) مَن يُبطن الكفرَ ويُظهر الإيمانَ.

(٤) رسالة العبودية لابن تيمية بتصرف يسير.

أولًا: تقديم المفعول إياك على فعله «نعبد ونستعين» وفائدة هذا التقديم الحصر، فلو كان سياق الآية (نعبدك ونستعينك) لم يمنع ذلك أن يُعبدَ مع الله غيره وأن يستعين معه بسواه، ولكنه لما قدَّم المفعول أفاد الحصر في ذلك ومعناه: لا نعبدُ إلَّا أنت ولا نستعينُ إلَّا بك.

ثانيًا: الالتفات مِن الغيبة إلى الخطاب لتحريك الذهن وإثارة الانتباه وهذا الالتفات مِن الغيبية إلى الحضور يُشير إلى قرب العبد مِن ربه وحضوره بين يديه.

ثالثًا: وردت الصيغة بلفظ الجمع «نعبد ونستعين» ولم يقل «إياك أعبد وإياك أستعين» بصيغة المفرد وذلك للاعتراف بقصور العبد عن الوقوف في باب مَلِكِ الملوك فكأنَّه يقول: أنا يا رب العبد الحقير الذليل، لا يليق بي أن أقف هذا الموقف في مُناجاتِك بمفردي، بل أنضم إلى سلكِ المؤمنين الموحِّدين فتقبَّل دُعائي في زُمرتهم فنحن جميعًا نعبدُك ونستعينُ بك[١].

إذا كانت سورةُ الفاتحة هي أم القرآن المجيد وخلاصته وروحه! -كما تبين بأدلته من قبل- فإنَّ ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ

---

(١) مُستفاد من صفوة التفاسير للصابوني.

نَسۡتَعِينُ﴾ بما تَفَجَّرَ مِن أنوارها وانكشف مِن أسرارها - هي خُلاصة الخُلاصة! وروح الروح! إنها منطلق الدين، وإنها غاية الدين، وإنها مَدَارُ الدين، وإنها المنهاج العملي الجامع لكل الدين، فلا شيء يبقى خارج فَلَكِهَا مِن الدين! إنَّها هي «الكَلِمَاتُ» التي ابتلى بها اللهُ هذه الأمة، كما ابتلى إبراهيمَ مِنْ قَبْلُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤﴾ [البقرة: ١٢٤]، ولذلك فالنَّاسُ إِزَاءها بين وَفِيٍّ وظَالِمٍ! فمَن أوفى بها أوفى بعهد الدين، ومَن خانها خان عهد الدين! وكان بذلك مِن الظالمين!

وأما تمامُها فهو مقام الغِنَى العالي، فمَن تحقق بها خُلُقًا غَنِيَ بالله؛ فكانت له أسماؤه الحسنى جمالًا يَتَلَقَّى أنوارَها عطاءً مِن الله لا ينفد أبدًا! منذ أن يضع قدمَه على صراط الله المستقيم -سيرًا إليه تعالى عبر مدارج الابتلاء التعبُّدي- حتى يلقى رحمةَ ربِّهِ وجمالَ رضاه! فما خاب قطُّ عبدٌ أخلص لله، ولا خَسِرَ مؤمنٌ استعان به وحده جلَّ في عُلاَهُ![1].

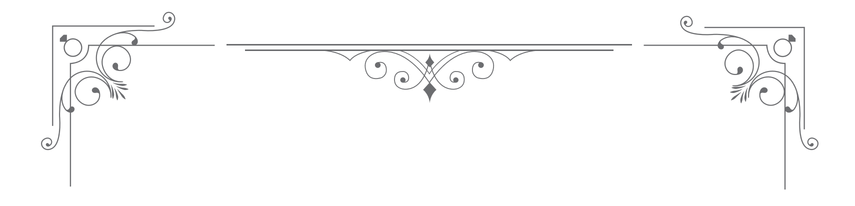


(١) مُستفاد من محاضرات د.فريد الأنصاري.



﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾

مِفْتَاحُ الهِدايَة



مِفْتَاحُ الهِدايَة

هو مِفتاحُ معرفةِ طريق الله، والسيْر خلف رسولِ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذا الصراط المستقيم هو السبيل الموصّل إلى مرضاة الله، ولا يُهتدَى إليه إلا بمعرفة وحيه حقَّ المعرفة، وسلوكه حقَّ السلوك، ولذا فسَّر كثيرٌ مِن العُلماء الصراطَ بالإسلام وبالقرآن؛ لأن طريق العبُوديَّة لا يمكن سلوكه إلا بتحقيق إسلام الوجه لله بصدق وإخلاص وفق مدلول وحيه مِن كتابٍ وسُنَّة؛ فاختارَ اللهُ لعبادِه هذا الشعار العظيم المبارك ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ ليتضرَّعوا به كل وقت وينحصر عملهم وإخلاصهم له وتدوم صلتهم معه، فينجوا مِن التخبُّطِ والوقوع في ظُلماتِ التيه.

فحاجةُ الإنسانية اليوم وفي كل حين إلى الهِدايةِ أشدُّ مِن الطعام والشراب والدواء؛ لأنها هي الغذاء المعنوي والدواء الروحي، وعلى هذا فالعبد مُضطر غاية الاضطرار دائمًا إلى أن يهديَه الله إلى

صراطه المستقيم ودينِه القويم، حتى لا يقع في المَتاهات الفكرية والانحرافات الحزبية والضلالات الأخلاقية.

فصدقُكَ أيَّها المسلم مع الله بضراعتِك إليه بـ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ يُنجيك مِن مخاطر الدُّنيا والآخرة، فسلوك صراط الله هو النَّجاة، مَن سلَكَه فهو معصومٌ مِن الضلال والالتباس، ومَن حادَ عنه وقع في كثيرٍ مِن المتاهاتِ المُهلكة والسُّبُلِ الشائكة.

وهل في نِعَمِ الله بهذه الحياة شيءٌ أعظمُ مِن نِعمة الهداية حتى النهاية، والثبات على الصراط حتى الممات؟! ذلك النُّور العظيم الذي ليس بعدَه إلَّا تيه الضلال وجحيم الظلمات! فالعبدُ عاجزٌ عن معرفةِ طريق الحق بحولِه وقوتِه، وإذا عرفَه فعاجزٌ عن التوفيق لذلك، وإذا وُفِّق فعاجزٌ عن الثبات عليه ولزومه، فهو يسأل ربَّه الهدايةَ في كل حال إذ هو لا يملك نفسَه وقلبَه، فقد يُسلب منه الإيمان مِن حيث لا يشعر وكثير ما هم، ثبَّتنا اللهُ وإياك على صراطه المستقيم.

والهداية في اللغة: تعني الدلالة والإرشاد.

مصدر هدَى: إرشاد ودلالة على ما يوصل إلى المطلوب.

هدَى يَهدي، اهْدِ، هُدًى وهَدْيًا وهِدايةً، فهو هادٍ، والمفعول مَهدِيّ.

هدَى الحائرَ: أرشدَه ودلَّه، عكسه أضلَّه.

هدَى هَدْيَ فلانٍ: أي سار سيْرَه، واسترشد به.

فالهداية هي معرفة الطريق الصحيح الموصل إلى الله تحقيقًا، والاستقامة على مِنهاجِه تثبيتًا، كما قال رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**سَلِ اللهَ تَعَالَى الْهُدَى، وَالسَّدَادَ، وَاذْكُرْ بِالْهُدَى هِدَايَتَكَ الطَّرِيقَ، وَاذْكُرْ بِالسَّدَادِ تَسْدِيدَكَ السَّهْمَ**»[١].

أي: اهْدِني هِدايةً لا أَميلُ بِها إلى طَرَفَي الإِفْراطِ والتَّفْريطِ، وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَاذْكُرْ بِالْهُدَى هِدَايَتَكَ الطَّرِيقَ**»؛ أن تذكر في حال دُعائك الهداية مَن ركب متن الطريق لا يكاد يُفارق الجادَّة، ولا يعدِلُ عنها يمنة ويسرة خوفًا مِن الضلال، وبذلك يُصيب الهداية، وينال السَّلامة، يقول: إذا سألت اللَّه تعالى الهُدى، فاخطر بقلبك هداية الطريق، وسل اللَّه الاستقامة، كما تتحرَّاه في هداية الطريق إذا سلكتها[٢].

فالهدايةُ هي قصَّةُ حياتِك، وبُوصلةُ طريقِك، ومِصباحُ سيْرِك،

---

(١) صحيح الجامع.
(٢) معالم السُّنن للخطَّابي.

ولا ينالُها إلا مَن سعى إليها؛ وجدَّ في طلبِها ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝١١﴾ [التغابن: ١١]، ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٦٩﴾ [العنكبوت: ٦٩]، ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٠١﴾ [آل عمران: ١٠١]، وكما جاء في الحديث القدسي: «**يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْته، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ**»(١).

لذلك كان مِن الضروري ذكْر مَراتِب الهداية كما وردَتْ في القرآن الكريم، وتتلخَّص في أربع مَراتِب؛ هي:

أولًا: الهداية العامَّة:

وهي هداية عامَّة لجميع الكائنات، فاللهُ قد هَدَى كلَّ نفس إلى ما يُصلِح شأنها ومعاشها، وفطَرَها على جلْب النافع، ودفْع الضارِّ عنها، وهذه أَعمُّ مَراتِب الهداية.

والله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ [الأعلى: ١ - ٣]، وهذه الحقيقة الكُبرَى ماثِلَة في كلِّ شيء في هذا الوجود، يشهَد لها كلُّ شيء في الوجود مِن

---

(١) مسلم.

الكبير إلى الصغير، كلُّ شـيء مُسَـوًّى في صنعته، كامل في خلقته، مُعَدٌّ لأداء وظيفته، مُقَدَّر له غايتُه ووجودُه، وهو مُيَسَّـر لتَحقِيق هذه الغايَة مِن أَيسَر طريق، وجميع الأشياء مُجتَمِعة كاملة التناسُق مُيَسَّرة لكي تُـؤَدِّي في تجمُّعها دَورَهـا الجماعيَّ مثلما هي مُيَسَّـرة فُرادَى لكـي تُـؤَدِّي دَورَها الفـرديَّ، وهذا واضحٌ في الكون المشـهود في الذَّرَّة المفردة، والمجموعة الشمسـية، كذلك بين الخلية الواحدة، وأَعطَـى الكائناتِ الحيَّةَ درجـاتٍ مِن التنظيمـات والتركيبات تدلُّ على الكمال الخلقي والتدبير والتقدير.

هذه الحقيقة العميقة الشاملة لكلِّ ما في الوجود يُدرِكها الإنسانُ ببَصَرِه وبَصِيرته، وبعِلمه وملاحَظتِه وتجربتِه، ويستَطِيع البشَـر مِن خِلال العالَم المشهود أن يَتعرَّف على تسوِيَة اللهِ وهدايتِه لكُلّ شيء مِن خلال عالَم النبات والحشرات والطيور والحيوان... إلخ.

ثانيًا: هداية الدلالة والبيان، والإرشاد والتعليم:

وهـذا النـوع هو وظيفة الرسُـل والكتـب المُنزَّلة مِن السـماء، وهـو خـاصٌّ بالمكلَّفيـن، وهـذه الهداية هـي التـي أثبتَها لرسـوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ

وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى: ٥٢]، كما أنَّ هذا النوع مِن الهداية أخصُّ مِن التي قبْلَها، فهي مصدر التكليف ومَناطُه، وبها تقوم حُجَّة الله على عِباده؛ فإنَّ الله تعالى لا يُدخِل أحدًا النَّار إلا بعد إرسال الرسُل الذين يُبيِّنون للنَّاس طريق الغيِّ مِن الرشاد.

والله تعالى لم يمنع أحدًا هذه الهداية، ولم يَحُلْ بين أحدٍ مِن خلْقه وبين هذه الهداية، بل خلَّى بينهم وبينها، ومَنَحَهم مِن الوَسائل والأدوات التي تُساعِدهم على تقبُّلها والاستِفادة بها؛ كالعقل والفطرة، وأقام لهم بذلك أسبابَ الهداية ظاهرةً وباطنةً، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [فصلت: ١٧]، أي: بَيَّنَّا لهم ودعوناهم، فاستحبُّوا العَمَى على الهدى؛ أي: بصَّرناهم وبيَّنَّا ووضَّحنا لهم الحقَّ على لسان نبيِّهم صالح، فخالَفُوه، وكذَّبُوه، وعَقَروا ناقة الله تعالى، التي هي بُرهان على صدْق نبيِّهم، فعَدَمُ الاهتِدَاء واقِعٌ بسبب القُصُور الحادِث في المحلِّ القابِل للأثر وهو الإنسان، وليس في قُصُور السبب، فكانت النتيجة أنْ أضلَّهم اللهُ عقوبةً على ترْك الاهتِداء، وعدم الاستِجابة لما جاءَتْ به الرسُل.

ثالثًا: هداية التوفيق والمعونة:

وهـذه الهِدايـة أَخَصُّ مِن التـي قبْلها، فهي هدايـةٌ خاصَّة تأتي بعـد هداية البيان؛ تحقيقًا لقولـه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ﴾ [مريـم: ٧٦]، فلا تكون لملَكٍ مُقرَّب، ولا نبيٍّ مُرسَـل، إنما هـي خاصَّة بالله وحـدَه، فلا يَقْدِر عليها إلا هو، ولا يُعطِيها إلا لِمَن حقَّق شروطها واستَوفَى أسبابها.

وهذا النوع مِن الهداية هو الذي نَفَاه الله عن نبيِّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [القصص: ٥٦].

رابعًا: الهداية إلى الجَنَّة والنَّار يوم القيامة:

وهذه المرتبة، آخِر مَراتِب الهداية، وهي الهداية يوم القيامة إلى طريق الجَنَّة، وهو الصراط المُوصِل إليها، فمَن هُدِي في هذه الدار الدُّنيا إلى صراط الله المستقيم الذي أرسل به رسُله وأنزل به كُتبه، هُـدِي يوم القيامة إلى الصراط المستقيم، المُوصِـل إلى جَنَّته ودارِ ثوابـه، وعلى قدْر ثُبُوت قدَم العبد، وسَـيْرِه على هذا الصراط الذي نصَبَه الله لعباده في هذه الدار الدُّنيا، يكُون ثُبُوت قدَمه وسَيْره على

الصراط المنصوب على متْنِ جهنَّم أعاذنا اللهُ منها؛ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في شأنهم: ﴿ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الصافات: ٢٢-٢٣].

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في شأن المؤمنين: ﴿ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ ﴾ [محمد: ٤ - ٦]، فهذه هداية بعد قتلهم؛ ﴿ سَيَهْدِيهِمْ ﴾؛ أي: إلى الجنَّة، وذلك يفسِّره قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ ﴾ [يونس: ٩].

هذه هي الهداية، أمَّا الصراط فقد أخبرنا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بأنه ليس هناك إلا طريق واحد يؤدي إلى مراضيه، ألا وهو: الصراط المستقيم والطريق الواضح البيِّنُ الذي لا اعوجاج فيه، هذا الطريق المستقيم ينبغي على المسلم أن يعرفَه جيدًا ويُميِّزَه مِن بين الطرُقِ الأخرى المُحيطة به، وأن يسير فيه طيلة حياته حتى يلقى ربَّه ومولاه.

قال الله: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

فمَن رجا أن يهتدي بغير هَدي الله فقد ضل ضلالًا بعيدًا، وهكذا نجد أنَّ الصراط المستقيم، الذي ندعو اللّه أن يهدينا لنسير نحوه، هو دين اللّه الذي أنزله على رسوله في كتابه، وفي ما أوحى به إليه مِن شريعته ومنهجه الحق، الذي أراد اللّه لنبيه الاستقامة عليه في خط الدعوة إليه مِن دون تغيير ولا تبديل.

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مَسْعُود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَطَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطًّا بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ: «**هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ مُسْتَقِيمًا**»، قَالَ: ثُمَّ خَطَّ خطوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**هَذِهِ السُّبُلُ لَيْسَ مِنْهَا سَبِيلٌ إِلاَّ عَلَيْهِ شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ**» ثُمَّ قَرَأَ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾[1].

وعَنِ النَّوَاسِ بْنِ سَمْعَانَ الأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَعَلَى جَنْبَتَيْ الصِّرَاطِ سُورَانِ فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ أَيُّهَا النَّاسُ ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا وَلَا تَتَعَوَّجُوا وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ جَوْفِ الصِّرَاطِ فَإِذَا أَرَادَ يَفْتَحُ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ قَالَ وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ وَالصِّرَاطُ**

---

(١) النسائي.

الْإِسْلَامُ وَالسُّورَانِ حُدُودُ اللَّهِ تَعَالَى وَالْأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ مَحَارِمُ اللَّهِ تَعَالَى وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ كِتَابُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالدَّاعِي فَوْقَ الصِّرَاطِ وَاعِظُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ»[١].

فـي هـذا الحَديـثِ يقـولُ النَّبـيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ضَـرَبَ اللـهُ مَثلًا**»، أي: بيَّن مَثلًا لعِبادِه، وَمِن الأسـاليبِ التي امتازَ بها البَيانُ في القُرآنِ والسُّـنَّةِ النَّبويَّةِ: ضَربُ الأمثالِ لِتَقريبِ المفاهيمِ للنَّاسِ عندَ وَعْظِهم وتَعليمِهم، «**صِراطًا مُسـتقيمًا**»، وهو: الطَّريقُ المُمتَدُّ الَّذي لا اعوِجـاجَ فيه، «**وعن جَنبَتَي الصِّـراطِ**»، أي: على طَرَفَيْ أو جانِبَيْ هذا الطَّريقِ، «**سُورانِ**»، أي: جِدارانِ يُحيطانِ به مِن جِهَتَيه، «**فيهما**»، أي: يتَخلَّلُ هذينِ الجِدارَينِ «**أبوابٌ مُفتَّحةٌ، وعلى الأبوابِ سُتورٌ**»، جمـعُ سِـتْرٍ، «**مُرخاةٌ**»، أي: مُرسَـلةٌ، والمعنى: أنَّـه مُلْقًى على تلك الأبـوابِ سـتائِرُ لا تُظهِـرُ للمـارِّ مِـن علـى الصِّـراطِ مَـن بداخِلِها، «**وعندَ رأْسِ الصِّـراطِ داعٍ**»، أي: في أوَّلِه، والمرادُ بالدَّاعي: هو مَن يُرشِـدُ للنَّاسِ أمْرَهم على هذا الطَّريقِ، وهـذا الدَّاعي يقولُ للناسِ: «**اسـتَقيموا علـى الصِّـراطِ ولا تَعْوَجُّوا**»، أي: سِـيروا عليـه دونَ أنْ تَميلـوا إلى الأطـرافِ والجوانـبِ، «**وفوقَ ذلـك داعٍ يَدْعـو**»، أي: وهناك داعٍ آخَرُ فوقَ الدَّاعي الَّذي يَدْعو النَّاسَ على رأْسِ الصِّراطِ؛

(١) صحيح الجامع.

وهـذا الدَّاعـي: «**كلَّما همَّ عبْـدٌ**»، أي: قصَدَ وأراد «**أنْ يَفتَحَ شـيئًا**»، أي: قدْرًا يَسيرًا «**مِن تلك الأبوابِ**»، أي: مِن سُتورِها، «**قال له**»، أي: هـذا الدَّاعي: «**وَيلَك**» وهي كلمةُ تَرحُّمٍ وتَوجُّـعٍ تُقال لمَن وقَعَ في هلَكةٍ لا يَستحِقُّها، ثم استُعمِلَت لِمُجرَّدِ الزَّجْـرِ، «**لا تَفتَحْه**»، أي: زجَـرَه عـن فتْحِه لهذه الأبوابِ، وحذَّرَه مِن ذلـك؛ «**فإنَّك إنْ تَفْتَحْه تَلِجْهُ**»، أي: لو فتَحْتَ هذه الأبوابَ لنْ تَستطيعَ أنْ تُمسِـكَ نفْسَـك عن الدُّخولِ، «**ثم فسَّـره**»، أي: فسَّر النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا المَثَلَ؛ «**فأخبَرَ أنَّ الصِّراطَ هو الإسـلامُ**»؛ وهو طريقٌ مُستقيمٌ، والمطلوبُ مِن العبْدِ الاستقامةُ عليه، «**وأنَّ الأبوابَ المُفتَّحةَ مَحارِمُ اللهِ**»، أي: الأمورُ التي حرَّمَها، والشُّبهاتُ الَّتي نَهى عنهـا العِبادَ؛ فإنَّها أبوابٌ للخُـروجِ عـن كَمالِ الإسـلامِ والاستقامةِ، والدُّخولِ فـي العذابِ والمَلامـةِ، فـلا يقَعُ أحَـدٌ في حُدودِ اللهِ حتَّى يُكشَـفَ السِّـترُ الَّذي على تِلك الأبوابِ؛ فمَن انتهَكَ المحارِمَ هتَكَ السُّتورَ، وقد قال اللهُ تعالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾ [البقرة: ١٨٧]، «**والدَّاعي على رأْسِ الصِّـراطِ هو القرآنُ**» يَدْعو الناسَ إلى الاستقامةِ على أمْرِ اللهِ عزَّ وجلَّ بما فيه مِن أوامِرَ ونواهٍ، وإرشاداتٍ وآدابٍ، وغيرِ ذلك ممَّا بـه يكونُ صلاحُ الناسِ وهِدايتُهم، «**والدَّاعي مِن فوقِه هو واعظُ اللهِ فـي قلْـبِ كلِّ مُؤمـنٍ**»، قِيل: هـي لَمَّةُ الملَـكِ في قَلْـبِ كلِّ مُؤمنٍ، واللَّمَّةُ الأُخرى هي لَمَّةُ الشَّيطانِ.

وفي الحديثِ: الأمرُ باتِّباعِ القُرآنِ وما جاء فيه مِن أوامِرَ ونَواهٍ، والنَّهيُ عن الوُقوعِ في مَحارِمِ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

فهذا الإنسان الحائرُ في غياهِب الظُّلمات، التائهُ في صحراء التيه، الغارقُ في بحار الأوهام، السَّائرُ في طريق المجهول، هذا الإنسان المُتطلّع إلى مشارق النُّور في الغيب ليكتشفها في عقله وقلبه وحياته، لا يأكل القلق روحه، بل يملأ الأمل عينيه؛ يُناجي ربّه في طفولة الإحساس الروحي بالفقر إليه، والذوبان في مواقع الشوق الباحث عنه، إنه يبحث عن الهدى في معرفة ربّه، ومعرفة مواقع عظمته، ومفردات نعمته، وما يريد له، وما يريده منه، وما يخطط له مِن خطط، وما يثيره في داخله مِن أشواق وتطلُّعات.

الحكمة من سؤال المسلم الهداية:

إذا قيل: المسلم مهتدٍ بإسلامه فما فائدة سؤاله الهداية؟

فالجواب: أن دخول المسلم في الإسلام هو أصل الهداية؛ لكنّه يحتاج إلى هداياتٍ كثيرة متنوّعة ومُتجدّدة، وبيان ذلك مِن وجوه:

① أنَّ الهدايةَ قائمة على العلم والعمل، وهما يتفاضلان؛ فيحتاج المؤمن إلى البصيرة في الدين، وإلى الإعانة على الطاعة، والعصمة مِن الضلالة في كلّ أمرٍ مِن أموره.

٢ أنَّ الهدايةَ الإجماليَّة لا تُغني عن الهداية التفصيليَّة.

٣ أنَّ القلبَ يتقلَّب، وحاجة العبد إلى سؤال الله تعالى التثبيت والهداية دائمة مُتجددة.

٤ أنَّ الفتنَ التي تعترض المؤمن في يومه وليلتِه كثيرة متنوّعة ومَن لم يهدِه اللهُ ضلَّ بها، وكم أصابت الإنسان المقصّر مِن فتنة تضرر بها وبعقوباتها، ولو أنَّه أحسن الاستعاذة بالله منها وسؤاله الهداية لَسَلِم مِن شرٍّ كثير.

٥ أنَّ لكل عبدٍ حاجات خاصَّة للهداية، بما يُناسب حاله، فهو محتاج إلى أن يمدَّه اللهُ بتلك الهدايات، وإن لم يهدِه اللهُ لم يهتد.

لذلك علَّمَنا رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كيف نطلُبُ الهِداية مِن الله في كُل أُمُورِ الحياة، فكان مِن أدعيته لطلبِ الهِداية ما يلي:

عن عبدالله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يدعو بهذا الدُّعاءِ: «**اللَّهمَّ إنِّي أسأَلُكَ الهُدَى والتُّقى والعفافَ والغِنى**»[1].

---

(١) صحيح مسلم.

عن أَبِي سَلَمَةَ بنِ عبدِ الرَّحْمَنِ بنِ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ أُمَّ المُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، بأَيِّ شيءٍ كانَ نَبِيُّ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَفْتَتِحُ صَلَاتَهُ إذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ؟ قالَتْ: كانَ إذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ افْتَتَحَ صَلَاتَهُ: «**اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ، وَمِيكَائِيلَ، وإسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأرْضِ، عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بيْنَ عِبَادِكَ فِيما كَانُوا فيه يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِما اخْتُلِفَ فيه مِنَ الحَقِّ بإذْنِكَ، إنَّكَ تَهْدِي مَن تَشَاءُ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**»(١).

عن الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قالَ: علَّمني رسولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلماتٍ أقولُهنَّ في الوترِ، قالَ ابنُ جوَّاسٍ: في قنوتِ الوترِ: «**اللَّهُمَّ اهدِني فيمَن هديتَ، وعافِني فيمَن عافيتَ، وتولَّني فيمَن تولَّيتَ، وبارِك لي فيما أعطيتَ، وقني شرَّ ما قضيتَ، إنَّكَ تقضي ولا يُقضى عليْكَ، وإنَّهُ لا يَذلُّ مَن واليتَ، ولا يعزُّ مَن عاديْتَ، تبارَكتَ ربَّنا وتعاليْتَ**»(٢).

عَن عبدِاللهِ بنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: كان النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعو يقولُ: «**ربِّ أَعِني ولا تُعِنْ عليَّ، وانصُرني ولا تنصُرْ عليَّ،**

---

(١) صحيح مسلم.
(٢) أخرجه أبو داود.

وامكُرْ لي ولا تمكُرْ عليَّ، واهدِني ويَسِّـرِ ليَ الهُدى، وانصُرني على مَـن بغى عليَّ، ربِّ اجعلْني لك شَـكَّارًا، لـك ذَكَّارًا، لك رهَّابًا، لك مِطواعًـا، لـك مُخبِتًا، إليـك أَوَّاهًا مُنيبًـا، ربِّ تقبَّلْ تَوْبتي، واغسِـلْ حَوبَتي، وأَجِبْ دَعْوتي، وثَبِّتْ حُجَّتي، وسَـدِّدْ لسـاني، واهدِ قلبي، واسلُلْ سَخيمةَ صدْري»[1].

وأختـمُ هـذه الفقرة بـكلامٍ قيِّم للإمام ابن القيِّـم في فضل هذا الدُّعـاء الجامـع ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ وحاجـة العبد إليه في كل أحواله وأزمانه حيث قَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(وَلِذَلِكَ اشْتَدَّتْ حَاجَةُ الْعَبْدِ بَلْ ضَرُورَتُهُ، إِلَى أَنْ يَسْأَلَ اللَّهَ أَنْ يَهْدِيَهُ الصِّرَاطَ الْمُسْـتَقِيمَ، فَلَيْسَ شَـيْءٌ أَحْوَجَ مِنْهُ إِلَى هَذِهِ الدَّعْوَةِ، وَلَيْسَ شَيْءٌ أَنْفَعَ لَهُ مِنْهَا.

فَـإِنَّ الصِّـرَاطَ الْمُسْـتَقِيمَ يَتَضَمَّـنُ: عُلُومًـا، وَإِرَادَةً، وَأَعْمَالًا، وَتُـرُوكًا ظَاهِـرَةً وَبَاطِنَـةً تَجْرِي عَلَيْـهِ كُلَّ وَقْتٍ، فَتَفَاصِيـلُ الصِّرَاطِ الْمُسْـتَقِيمِ قَـدْ يَعْلَمُهَا الْعَبْدُ وَقَـدْ لَا يَعْلَمُهَا، وَقَدْ يَكُـونُ مَا لَا يَعْلَمُهُ أَكْثَـرَ مِمَّا يَعْلَمُهُ، وَمَـا يَعْلَمُهُ قَدْ يَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَقَـدْ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَهُوَ

---

(١) صحيح الترمذي.

الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ وَإِنْ عَجَزَ عَنْهُ، وَمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ قَدْ تُرِيدُهُ نَفْسُهُ وَقَدْ لَا تُرِيدُهُ كَسَلًا وَتَهَاوُنًا، أَوْ لِقِيَامِ مَانِعٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَمَا تُرِيدُهُ قَدْ يَفْعَلُهُ وَقَدْ لَا يَفْعَلُهُ، وَمَا يَفْعَلُهُ قَدْ يَقُومُ فِيهِ بِشُرُوطِ الْإِخْلَاصِ وَقَدْ لَا يَقُومُ، وَمَا يَقُومُ فِيهِ بِشُرُوطِ الْإِخْلَاصِ قَدْ يَقُومُ فِيهِ بِكَمَالِ الْمُتَابَعَةِ وَقَدْ لَا يَقُومُ، وَمَا يَقُومُ فِيهِ بِالْمُتَابَعَةِ قَدْ يَثْبُتُ عَلَيْهِ وَقَدْ يُصْرَفُ قَلْبُهُ عَنْهُ، وَهَذَا كُلُّهُ وَاقِعٌ سَارٍ فِي الْخَلْقِ، فَمُسْتَقِلٌّ وَمُسْتَكْثِرٌ.

وَلَيْسَ فِي طِبَاعِ الْعَبْدِ الْهِدَايَةُ إِلَى ذَلِكَ، بَلْ مَتَى وُكِلَ إِلَى طِبَاعِهِ حِيلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ذَلِكَ كُلِّهِ، وَهَذَا هُوَ الْإِرْكَاسُ الَّذِي أَرْكَسَ اللَّهُ بِهِ الْمُنَافِقِينَ بِذُنُوبِهِمْ، فَأَعَادَهُمْ إِلَى طِبَاعِهِمْ وَمَا خُلِقَتْ عَلَيْهِ نُفُوسُهُمْ مِنَ الْجَهْلِ وَالظُّلْمِ، وَالرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ فِي قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، وَنَهْيِهِ وَأَمْرِهِ، فَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَجَعْلِهِ الْهِدَايَةَ حَيْثُ تَصْلُحُ، وَيَصْرِفُ مَنْ يَشَاءُ عَنْ صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ بِعَدْلِهِ وَحِكْمَتِهِ، لِعَدَمِ صَلَاحِيَةِ الْمَحَلِّ، وَذَلِكَ مُوجِبُ صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نَصَبَ لِخَلْقِهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا يُوصِلُهُمْ إِلَيْهِ، فَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

وَنَصَبَ لِعِبَادِهِ مِنْ أَمْرِهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا دَعَاهُمْ جَمِيعًا إِلَيْهِ حُجَّةً مِنْهُ وَعَدْلًا، وَهَدَى مَنْ يَشَاءُ مِنْهُمْ إِلَى سُلُوكِهِ نِعْمَةً مِنْهُ وَفَضْلًا، وَلَمْ يَخْرُجْ بِهَذَا الْعَدْلِ وَهَذَا الْفَضْلِ عَنْ صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ لِقَائِهِ نَصَبَ لِخَلْقِهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا يُوَصِّلُهُمْ إِلَى جَنَّتِهِ، ثُمَّ صَرَفَ عَنْهُ مَنْ صَرَفَ عَنْهُ فِي الدُّنْيَا، وَأَقَامَ عَلَيْهِ مَنْ أَقَامَهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا، نُورًا ظَاهِرًا يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ فِي ظُلْمَةِ الْحَشْرِ، وَحَفِظَ عَلَيْهِمْ نُورَهُمْ حَتَّى قَطَعُوهُ كَمَا حَفِظَ عَلَيْهِمُ الْإِيمَانَ حَتَّى لَقُوهُ، وَأَطْفَأَ نُورَ الْمُنَافِقِينَ أَحْوَجَ مَا كَانُوا إِلَيْهِ، كَمَا أَطْفَأَهُ مِنْ قُلُوبِهِمْ فِي الدُّنْيَا.

وَأَقَامَ أَعْمَالَ الْعُصَاةِ بِجَنْبَتَيِ الصِّرَاطِ كَلَالِيبَ وَحَسَكًا تَخْطِفُهُمْ كَمَا خَطَفَتْهُمْ فِي الدُّنْيَا عَنِ الِاسْتِقَامَةِ عَلَيْهِ، وَجَعَلَ قُوَّةَ سَيْرِهِمْ وَسُرْعَتَهُمْ عَلَى قَدْرِ قُوَّةِ سَيْرِهِمْ وَسُرْعَتِهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَنَصَبَ لِلْمُؤْمِنِينَ حَوْضًا يَشْرَبُونَ مِنْهُ بِإِزَاءِ شُرْبِهِمْ مِنْ شَرْعِهِ فِي الدُّنْيَا، وَحَرَمَ مِنَ الشُّرْبِ مِنْهُ هُنَاكَ مَنْ حُرِمَ الشُّرْبَ مِنْ شَرْعِهِ وَدِينِهِ هَاهُنَا.

فَانْظُرْ إِلَى الْآخِرَةِ كَأَنَّهَا رَأْيُ عَيْنٍ، وَتَأَمَّلْ حِكْمَةَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ فِي الدَّارَيْنِ، تَعْلَمْ حِينَئِذٍ عِلْمًا يَقِينًا لَا شَكَّ فِيهِ: أَنَّ الدُّنْيَا مَزْرَعَةُ

الْآخِـرَةِ وَعُنْوَانُهَـا وَأُنْمُوذَجُهَـا، وَأَنَّ مَنَازِلَ النَّاسِ فِيهَا مِنَ السَّـعَادَةِ وَالشَّـقَاوَةِ عَلَى حَسَـبِ مَنَازِلِهِمْ فِي هَذِهِ الدَّارِ فِـي الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَضِدِّهِمَا، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

فَمِنْ أَعْظَمِ عُقُوبَاتِ الذُّنُوبِ: الْخُرُوجُ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْـتَقِيمِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ)[1].

فيـا ربِّ قَد سـلَّمنا لهُداك، وقرَّرنا ألاَّ نعبُدَ إلاَّ إيَّاك؛ ولا نسـأل الهِدايَةَ مِن سـواك! فكَفى بِكَ هادِيًا ونصيرًا، أنتَ الذي تقُول الحقَّ وأنتَ وحدَكَ تهدي السَّـبيل، نسـأَلُكَ الهِداية حتـى النهاية والثبات على الصراط حتى الممات، ولكن يا ربِّ ما المَخرَجُ مِن الظُّلماتِ الحَوالِـك إلى نُـورِك المُبين؟! إلـى أينَ نلتَجئ؟ وبِم نستَمسِـك؟! وبِمَن نقتدِي؟!

فجاء الجوابُ في المِفتاح السادس...



---

(١) الداء والدواء.



﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾

مِفْتَاحُ الاتِّبَاع



مِفْتَاحُ الاتِّبَاع

هـو مِفتاحُ اتِّبـاعِ القُدُواتِ، مِـنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّـهَداءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا، لإِنَّنا لسْنَا على معرفةٍ تامَّةٍ بمعالمِ الصراط المستقيم، فإنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بيَّنَهُ لنا في هذه الآية الكريمة، إنَّه طريقُ الأنبياء ومَن سار خلفَهم واتَّبَعَ آثارَهم وتمسَّكَ بمنهَجِهم.

وهـذه الآيـةُ تجعلُ العبـدَ يأنس برفقـة صالحة ومِن ثَـمَّ تزول وحشـةُ الطريق مِن قلة السـالكين، فطريقُه هو طريقُ الذينَ أنْعَمَ اللهُ عليهم مِن قبل.

وفي هذا يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(وَلَمَّـا كَانَ طَالِبُ الصِّـرَاطِ الْمُسْـتَقِيمِ طَالِبَ أَمْـرٍ أَكْثَرُ النَّاسِ نَاكِبُونَ عَنْهُ، مُرِيدًا لِسُـلُوكِ طَرِيقٍ مُرَافِقُـهُ فِيهَا فِي غَايَةِ الْقِلَّةِ وَالْعِزَّةِ، وَالنُّفُـوسُ مَجْبُولَةٌ عَلَى وَحْشَـةِ التَّفَـرُّدِ، وَعَلَى الْأُنْـسِ بِالرَّفِيقِ، نَبَّهَ اللَّهُ سُـبْحَانَهُ عَلَى الرَّفِيقِ فِي هَذِهِ الطَّرِيقِ، وَأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ ﴿ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ﴾ [النسـاء: ٦٩]، فَأَضَـافَ الصِّـرَاطَ إِلَى الرَّفِيقِ السَّـالِكِينَ

لَهُ، وَهُمُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، لِيَزُولَ عَنِ الطَّالِبِ لِلْهِدَايَةِ وَسُلُوكِ الصِّرَاطِ وَحْشَةُ تَفَرُّدِهِ عَنْ أَهْلِ زَمَانِهِ وَبَنِي جِنْسِهِ، وَلِيَعْلَمَ أَنَّ رَفِيقَهُ فِي هَذَا الصِّرَاطِ هُمُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، فَلَا يَكْتَرِثُ بِمُخَالَفَةِ النَّاكِبِينَ عَنْهُ لَهُ، فَإِنَّهُمْ هُمُ الْأَقَلُّونَ قَدْرًا،وَإِنْ كَانُوا الْأَكْثَرِينَ عَدَدًا، كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: «عَلَيْكَ بِطَرِيقِ الْحَقِّ، وَلَا تَسْتَوْحِشْ لِقِلَّةِ السَّالِكِينَ، وَإِيَّاكَ وَطَرِيقَ الْبَاطِلِ، وَلَا تَغْتَرَّ بِكَثْرَةِ الْهَالِكِينَ»، وَكُلَّمَا اسْتَوْحَشْتَ فِي تَفَرُّدِكَ فَانْظُرْ إِلَى الرَّفِيقِ السَّابِقِ، وَاحْرِصْ عَلَى اللَّحَاقِ بِهِمْ، وَغُضَّ الطَّرْفَ عَمَّنْ سِوَاهُمْ، فَإِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَإِذَا صَاحُوا بِكَ فِي طَرِيقِ سَيْرِكَ فَلَا تَلْتَفِتْ إِلَيْهِمْ، فَإِنَّكَ مَتَى الْتَفَتَّ إِلَيْهِمْ أَخَذُوكَ وَعَاقُوكَ)[١].

﴿ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ وانظر كيف نسبَ النعمة إلى الله ولم ينسب إليه الإضلال والغضب فلم يقل: غضبتَ عليهم أو الذين أضللتَهم، وذلك لتعليم العباد الأدب مع الله تعالى، فالشرُّ لا يُنسب إلى الله تعالى أدبًا وإن كان منه تقديرًا، فإنَّ مِن الأدبِ مع الله عَزَّوَجَلَّ عدمَ نسبة ما يكرهه الإنسان إلى الله عز وجل كما جاء في دُعاءِ النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «... **لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ تبارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ...**»[٢].

---

(١) مدارج السالكين.

(٢) صحيح مسلم.

﴿ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ نفترض الآن أنَّك في الجامعة، وأنت في كلية الطب، فمِن مَن تأخذ النصيحة وتطلب منه أن يمُدَّك بالخبرة؟!

هل ستأخذ النصيحة مِن زميلك في نفس الدفعة؟!

أم ممَّن تخرَّج مِن الجامعة؟! مَن تظُنُّ أن نصيحتَه أفيَدُ لك، المُتَخرّجون مِن الجامعة؟ أم زملاؤك من الدفعة؟

لا شكَّ مِن المُتخرّجين، الذين سبقوك في الدراسة، فخاضوا التجارب، ودرسوا من قبل ما تدرسه أنتَ الآن، ويعلمون ما تحتاج له للتخرُّج والنجاح.

أمَّا زملاؤك الذين يجلسون بجوارك الآن في الصف؛ لا يعرفون أكثر مما تعرفه أنت، لأنكم في الصف سواء، ولا يُمكن الاعتماد عليهم، لأنهم لم ينتهوا مِن الدراسة بعد، وهل سينجحوا كما نجح السابقون مِن المتخرجين أم لا؟

لهذا إذا أردتَ قدوة، فعليك بمَن خاضوا الطريق قبلك.

فعندما تبتهلُ إلى ربّك بـ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ بيَّنَ لك أصحاب هذا الصراط ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ وكلمة (أَنۡعَمۡتَ) جاءت بالفعل الماضي، بمعنى آخر مطلوبٌ مني ومنك أن نبحثَ عن قدواتٍ مِن الزمن الماضي.

كالأنبياء والمُرسلين:

فإبراهيمُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قد تخرَّج مِن الجامعة الإسلامية العالمية.

ونوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قد تخرَّج مِن الجامعة الإسلامية العالمية.

وموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قد تخرَّج مِن الجامعة الإسلامية العالمية.

وعيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قد تخرَّج مِن الجامعة الإسلامية العالمية.

ومحمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد تخرَّج مِن الجامعة الإسلامية العالمية.

وكذلك الصِّدِّيقين:

فأصحابُ الكهفِ قد تخرَّجوا مِن الجامعة الإسلامية العالمية.

وأصحابُ محمدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ قد تخرَّجوا مِن الجامعة الإسلامية العالمية.

ومؤمنُ آل فرعون وأبو بكرٍ الصّدّيق وغيرهما مِن أتباع الرسُّل قد تخرَّجوا مِن الجامعة الإسلامية العالمية.

وكذلك الشُّهداء والصَّالحين:

فعُمرُ وعُثمانُ وعليٌّ قد تخرَّجوا مِن الجامعة الإسلامية العالمية.

وحمـزة وخالد وسـعد وأبو عُبيدة بن الجـرَّاح قد تخرَّجوا مِن الجامعة الإسلامية العالمية.

ومُعـاذ وزيْـد وابن مسـعود وبـلال قـد تخرَّجوا مِـن الجامعة الإسلامية العالمية.

ومريَـم ابنة عِمران وامرأة فرعون وخديجة وفاطمة وأُمُّ سُـليْم وسُـميَّة وجميـع أُمَّهات المؤمنين؛ قد تخرَّجـنَ جميعًا مِن الجامعة الإسلامية العالمية.

لقـد خاضـوا الطريـق مِـن قبـل وأتمُّـوه، واجتـازوا العقبات، ونجحوا في الابتلاءات، فرَضِي عنهُم ربُّ الأرضِ والسموات.

ونحن علينا الاقتداء بهم والسير على طريقهم؛ حتى يرضى اللهُ عنَّا مثلَهُم.

وهنا أذكُرُ أثرًا لعبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:

«مَـن كانَ مُسْـتَنًّا، فَلْيَسْـتَنَّ بمن قد مـاتَ، فإنَّ الحـيَّ لا تُؤمَنُ عليـه الفِتْنَـةُ، أولئـك أصحـابُ محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كانـوا أفضلَ هـذه الأمَّة: أبرَّها قلوبًا، وأعمقَها علمًا، وأقلَّها تكلُّفًا، اختارهم الله لصحبـة نبيِّـه، ولإقامة دِينه، فاعرِفـوا لهم فضلَهـم، واتبِعُوهم على أثرهم، وتمسَّكوا بما اسـتَطَعْتُم مِن أخلاقِهم وسيَرِهم، فإنهم كانوا على الهُدَى المُستقيم».

والمعنى: أنه مَن كان سالكًا طريقًا إلى ربه، فلا يسلك طريقًا ابتدأه هو، ولا يُقلِّد في دينه مَن هو مثله مِن الأحياء؛ لأنَّه لا يدري بما يختم اللهُ له، فيقلد في دينه رجلًا، إن كان اليوم على الُهدى والسنَّة، فلعله أن يختم له بغير ذلك. وإنما المأمون أن يتابع في سيره إلى ربه ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ أصحاب النَّبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، الذين قد ماتوا، ولم يعد يخشى عليهم مِن الفتنة.

والذينَ أنْعَمَ اللهُ عليهِم، تُبيِّنُهُم الآيةُ الكريمة مِن سورة النِّساء إذ يقول اللهُ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾ ﴾ [النساء: ٦٩].

والآية -كما هو واضح- قسَّمَتْ الذينَ أنْعَمَ اللهُ عليْهِم على أربعة أصناف مِن البشر: الأنبِيَاءِ، وَالصِّدِّيقِينَ، وَالشُّهَداءِ، وَالصَّالِحِينَ، لأنَّ هؤلاءِ هم شموسُ الحياةِ، ونجومُ السَّماءِ وأقمارُ الدُّنيا، وأئمَّةُ الهُدى ومصابيحُ الدُّجى، ومناراتُ الطريق إلى الله والدار الآخرة.

فالأنبِيَاءُ: هـم خيـرُ الخلـق وأفضلُهـم، لأنهـم رُسُـلُ اللـه، والواسـطةُ بينَـه وبيـن خلقِه فـي تبليغهم شـرعَه ومُرادَه مِـن عبادِه، وهـم المصطفون مِن عباد الله، اصطفاهم الله واختارهم واجتباهم ولا يختـار سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مِن خلقـه إلا أكرمهَم عليـه وأفضلَهم عنده وأكملهَم لديه.

قـال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ويكفـي في فضلِهم وشـرفِهم أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ اختصَّهـم بوحيه، وجعلَهم أُمنَاءَ على رسـالته، وواسـطة بينه وبيـن عبـادِه، وخصَّهم بأنـواع كراماته، فمنهـم مَن اتخـذَه خليلًا، ومنهـم مَن كلمَـه تكليمًا، ومنهم مَن رفعه مكانًا عليًّا على سـائرهم درجات، ولم يجعل لعبادِه وصولًا إليه إلا مِن طريقهم، ولا دخولًا إلـى جنَّته إلا خلفهم، ولم يُكرِم أحدًا منهم بكرامةٍ إلا على أيديهم، فهـم أقربُ الخلق إليه وسـيلة، وأرفعُهم عنده درجـة، وأحبُّهم إليه وأكرمُهم عليه، وبالجُملة فخيـرُ الدُّنيا والآخرة إنما نالَه العبادُ على أيديهـم، وبهم عُـرِفَ الله، وبهم عُبِدَ وأُطِيـعَ، وبهم حصلتْ محَابّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الأرض)[1].

---

(١) طريق الهجرتين.

وَالصِّدِّيقُون: هم أتباعُ الرسُّل الذين اتبعوهم على مناهجهم بعدَهم، حتى لحقوا بهم، فأعلى مرتبة يصل إليها أتباعُ الأنبياء أن يكونوا صِدِّيقِينَ، فهي أرفع درجة ومرتبة يبلغها المؤمن.

والصِّدِّيقُ: فِعِّيلٌ، الْمُبَالِغُ فِي الصِّدْقِ أَوْ فِي التَّصْدِيقِ، وَالصِّدِّيقُ هُوَ الَّذِي يُحَقِّقُ بِفِعْلِهِ مَا يَقُولُ بِلِسَانِهِ، وَقِيلَ: هُمْ فُضَلَاءُ أَتْبَاعِ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ يَسْبِقُونَهُمْ إِلَى التَّصْدِيقِ كَأَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)].

وابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر في كتابِه «مفتاح دار السعادة» مراتبَ السُّعداء والكُمَّل مِن النَّاس فقال:

(فأما مَرَاتِب الْكَمَال فأربع: النُّبُوَّة والصِّدِّيقيَّة وَالشَّهَادَة وَالْولَايَة وَقد ذكرهَا الله سُبْحَانَهُ فِي قَوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ﴾ [النساء: ٦٩]، وَذكر تَعَالَى هَؤُلَاءِ الأربع فِي سُورَة الْحَدِيد فَذكر تَعَالَى الإيمان بِهِ وبرسوله ثمَّ ندب الْمُؤمنِينَ إلى أن تخشع قُلُوبهم لكتابه ووحيه، ثمَّ ذكر مَرَاتِب الْخَلَائق شقيهم وسعيدهم، فَقَالَ: ﴿ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ

---

(١) تفسير القرطبي.

وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾ [الحديد: ١٨-١٩] وَذكر الْمُنَافِقين قبل ذَلِك فاستوعبت هَذِه الآية أقسام العباد شقيهم وسعيدهم، وَالْمَقْصُود أنه ذُكِرَ فِيهَا المَرَاتِب الأربع: الرسَالَة والصِّدِّيقيَّة وَالشَّهَادَة وَالْولَاية فأعلى هَذِه الْمَرَاتِب النُّبُوَّة والرسالة ويليها والصِّدِّيقيَّة فالصِّدِّيقون هُم أَئِمَّة اتِّبَاع الرُّسُل ودرجتُهم أعلى الدَّرَجَات بعد النُّبُوَّة)[1].

فالصِّدِّيقُ كما عرَّفه ابنُ القيم: هو الذي صَدَقَ في قولِه وفِعْلِه، وصَدَّقَ الحقَّ بقولِه وعَمَلِه، فقد انجذَبَتْ قواهُ كُلُّها للانقياد لله ولرسوله، ودرجاتُ الصِّدِّيقينَ تتفاوَتُ؛ لأنَّ الإيمان ليس له حَدٌّ ينتهي إليه؛ بل إنَّه يَزيدُ بالطاعة، وينقُص بالمعصية، وهذا مُعتقَدُ أهل السنة والجماعة، فمَن ظنَّ أن هناك درجاتٍ إيمانيةً يقِفُ عندها المؤمن صِدِّيقًا كان أو صالحًا، فقد أخطأ؛ فإن لم يكُن في تقدُّم، فهو في تأخُّرٍ ولا بُدَّ، فالعَبْدُ سائرٌ لا واقِفٌ، فإمَّا إلى فوق وإمَّا إلى أسفل، إمَّا إلى أمام وإمَّا إلى وراء، وليس في الشريعة أو الطبيعة وقوفٌ البتَّة.

---

(١) مفتاح دار السعادة، بتصرفٍ يسير.

فمَـن أراد تحري هذه المنزلة، وأن يمُـنَّ اللهُ عليه بها، ويكون مِـن أهلها؛ فعليه بالصدق التام في القـول والفعل، وبتقوى الله في السر والعلن.

وَأَمَّا الشُّهَدَاءُ: فهُمُ الَّذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللهِ، وَبَذَلُـوا أَنْفُسَـهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ فَقُتِلُـوا، لَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ أَجْـرٌ جَزِيلٌ وَنُورٌ عَظِيمٌ يَسْـعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ يَتَفَاوَتُونَ بِحَسَـبِ مَا كَانُوا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا مِنَ الْأَعْمَالِ.

لكن لماذا سُمّيَ الشهيدُ شهيدًا؟

قال ابن الأنباري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: سُمّيَ بذلك لأن الله تعالى وملائكته يشهدون له بالجنة. وقال النضر: لأنَّه حيٌّ فكأن روحه شاهدة يعني: حاضرة، وقيل: لأنَّه يشهدُ عند خروج روحه ما أُعِدَ له مِن الكرامة، وقيـل: لأنَّـه لا يشـهده عنـد موتـه إلا ملائكـة الرحمـة، قيـل: لأنَّ الملائكة تشـهد له بحُسـن الخاتمة، وقيل: لأنَّ الأنبياء يشهدون له بحُسـن الاتّباع لهم، وقيل: لأنَّ الله يشهد له بحُسن نيّته وإخلاصه، وقيل: لأنَّ هذه الأمَّة تشـهد له بالجنَّة، وقيل: لأنَّه يُشـاهدُ الملائكةَ عنـد احتضاره. وقيل: لأنَّه يُشـاهد الداريْـن دار الدُّنيا ودار الآخرة، وقيل: لأنَّ عليه علامة شاهدة بأنَّه قد نجى.

والأمـر كمـا قـال ابن حجـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في هـذه التعريفـات:** أن بعضها يختص فعلًا بشهيد المعركة، وبعضها يشمله وغيره.

وَلَا شَكَّ أَنَّ مَقَامَ الشَّهَادَةِ مِنْ أَعْلَى مَقَامَاتِ الِاصْطِفَاءِ وَالِاجْتِبَاءِ الَّتِي يَمْتَنُّ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بِهَا عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، فإنَّ الشُّهداءَ في أمَّةِ الإسلامِ كثير، ولو شاء أحدُنا أن يعدَّهُم لعجز، فلا يحصيهم إلا الله تعالى، مع أنَّ النَّاظرَ في واقع الحال يرى أنَّ الشُّهداءَ أقلّ مِن القليل، وهذا الفهم المغلوط يأتي مِن الجهل المُطبِق بدين الإسلام وما فيه مِن أحكام، والحق الذي لا مرية فيه أنَّ الشُّهداء في الإسلام لا يحصيهم ديوان، لتعدد الأسباب التي تؤول بالعبد إلى الوصول لمرتبة الشهادة، والحصول على ثوابها الجزيل.

والشَّهادةُ تنقسِمُ إلى قسمين؛ شهادةٌ كبرى، وصغرى.

فالكُبرى هي: الشَّهادةُ في سبيل الله تعالى في أرض القتال والنزال مع أعداء الملّة، وهذه المرتبة السامية والمنزلة العالية لمَن صَدَقَ مع الله في نيّته وعزيمته، فمضى لميادين الوغى وساحات الفِداء، بعد أن باع نفسَه لله، يرجو تجارة لن تبور مع العزيز الغفور، فتلقَّاهُ ربُّه بالقبول الحَسَن، واصطفاه لنيل الشَّهادة، فختم له بخاتمة السَّعادة.

وهـم مَـن قال فيهـم رسـول اللـه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ للشـهيدِ عند اللهِ سبعَ خِصالٍ: أن يُغفرَ له في أولِ دَفعةٍ من دمِه، ويرى مقعدَه مـن الجنـةِ، ويُحلَّى حُلَّـةَ الإيمانِ، ويُجـارُ من عذاب القبـرِ، ويأمنُ مـن الفزعِ الأكبرِ، ويوضعُ على رأسِـه تاجُ الوَقـارِ؛ الياقوتةُ منه خيرٌ من الدنيا وما فيها، ويُزوَّجُ اثنتَينِ وسـبعينَ زوجـةً من الحورَ العِينِ، ويُشفَّعُ في سبعينَ إنسانًا من أقاربِه**»[1].

والصُغرى هي: ما دون ذلك مما عده الشـارع الحكيم شهادة، لكنه دون المرتبة الأولى وقد ذكرتُهم في كتاب «**أنا عملُك الصَّالح**».

الصَّالِحون:

ومـا أدراك مـا الصَّالحـون، هـم الذيـن اتقـوا ربهـم فأطاعوه فيمـا أمـر، واجتنبـوا مـا نهى عنـه وزجـر، الذين اقتفـوا سُـنَّة النَّبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والتزموا بها، فهُمُ أهل طاعة الله تعالى ممَّن لم يَصِلْ إلى درجة الصِّدِّيقيَّة والشَّهادة، فهي لعامَّة المؤمنين.

قال ابن الجوزي:

وأمَّا الصَّالحون فهم اسم لكُلِّ مَن صَلَحَتْ سَريرتُه وعَلانيتُه.

---

(١) صحيح الترغيب والترهيب.

والصـلاح على هذا الترتيب أقل مِن منزلة الشَّـهادة، ولكن قد يفوقها أحيانًا، قال سـيدُنا سُـليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٩ ﴾ [النمل: ١٩]، مع أنَّه نبيٌّ مِن الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ.

وطلبهـا سـيدُنا يُوسُـف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠١ ﴾ [يوسف: ١٠١].

فاللهُمَّ احشُرْنا في زُمْرة أولئك الذينَ أنعمْتَ عليْهِم مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَداءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا.

ومِـن جميل كلمـة (أَنْعَمْتَ) أيضًا؛ أنَّ السيْرَ فـي طريق هؤلاء المُنعَـمِ عليهـم؛ ليس بحولِـك وقوتِك، فلـن تنجح وتفلـح إلا إذا أنعَمَ اللهُ عليك مثلهُم، وهم أيضًا لم يُفلحوا إلا بفضل الله وتوفيقه ونعمته عليهم.

ولكن هناك مَن أراد أن يسلُك الطريق لكنهم لم يصلوا، وفشلوا ولـم يتخرَّجوا مِـن جامعة الإسـلام التـي ارتضاها اللـهُ للعالمين، وضلَّوا الطريق بسـوء أفعالهم فلعنَهم اللهُ وغضِبَ عليهم، تُرى مَن هؤلاء الذين أغضبُوا اللهَ وطردَهم مِن رحمته؟!

فكانـت الإجابـة ﴿ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ فـإذا أردتَ أن تبتعد عن غضبِ الله عليك فلا تسلُك مسالك المغضوب عليهم ولا الضالين عن الطريق المستقيم.

مَـن هم؟ وما هي صفاتُهم؟ وكيف غضبَ الله عليهم؟ وكيف ضلُّوا ولماذا ضلَّوا؟

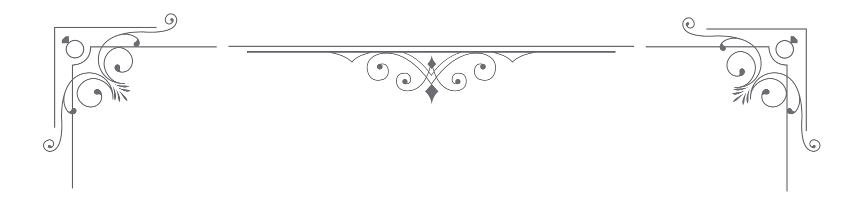
فكان المفتاح السابع....





﴿ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾

مِفْتَاحُ البَراءَة



مِفْتَاحُ البَراءَة

هو مِفتاحُ عقيدةِ الإسلام الكُبرى، لأنَّ البراءةَ مِن الشرك وأهله، والولاء والبراء والحبِّ في الله والبُغضِ في الله؛ مِن لوازم التوحيد وإخلاص الدِّين لله تعالى، وأصلٌ مِن أصولِ الإيمان، فيجِبُ على كل مُسلمٍ يدينُ لله بهذه العقيدة الفريدة؛ أن يُوالي أهلها ويُعادي أعداءها، وألَّا يتخَذ الكافرين أولياء يحبُّهم ويواليهم، بل الواجب عليه أن يُبغضَهم ويتخذّهم أعداءً؛ لأنهم أعداء لله عَزَّوَجَلَّ، فلا يجتمع إيمانٌ بالله وحبٌ لأعدائه في قلب العبد المؤمن، فلا يصح إيمان ولا إسلام دون أن يتبرَّأ المسلم مِن المشركين ومعبوداتهم، وأن يكفُرَ بالطَّاغوت، والطَّاغوتُ: هو كل ما عُبِدَ مِن دون الله.

فصِراطُ اللهِ المُستقيم يوجِبُ على أهله المؤمنين به؛ مخالفة أصحابِ الجحيم مِن كل كافرٍ ومنافقٍ سلكَ غيرَه مِن سُبُلِ الشياطين، فإنَّ الذي يُصدِّق اللهَ في أن صراطَه مستقيمًا، ولا عِوج

فيـه ولا انحـراف عنـه؛ لا بُـدَّ لـه مِـن سـلوكِه، وسـلُوكُه الصحيح يقتضي مخالفة السَّالكين غيرَه وعدم الموافقة لهم أو التشبُّه بهم أو الالتقـاء معهم في أي طريق أو مبدأ أو مذهب؛ لأن مَن لم يخالفهم يكون مُستحسِـنًا لشـيء مِن طرائقهم، أو في قلبِه ميْلٌ إليهم، وبقدر ما يستحسـنُ مِن قوانينهم أو شـرائعهم أو يلتقي معهم في أخلاقهم وعاداتهـم فيُقلِّدهـم في أزيائهـم أو أخلاقهم أو أعيادهـم؛ بقدر ما يبتعد عن صراطِ الله على حسب ذلك.

والبراءة: هي البُغضُ والعداوةُ والابتعادُ عن الشِّرك والمشركين اعتقادًا وعملًا وسكنًا وتنقَسِمُ إلى قسمين:

① **البـراءةُ مِن العمل:** وهو البراءةُ مِن الشـرك والكفر ذاته، وهذا فرضٌ لازم.

② **البـراءةُ مِـن العامـل:** وهو البـراءةُ مِن المُشـرك والكافر والتابع لهم والراضي بهم.

والـولاء والبراء أوثقُ عُرى الإيمان، عَـنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، عن النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قـال: «**إِنَّ أَوْثَقَ عُرَى الْإِيمَانِ: أَنْ تُحِبَّ فِي اللهِ، وَتُبْغِضَ فِي اللهِ**»[١].

(١) صحيح الترغيب.

يقـول عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١ ﴾ [الممتحنة: ١]، انظر! كيف قال؟ عدوي وعدوكم ٱللَّهُأَكۡبَرُ وهل هناك أعظم فخرًا مِن أن يكون اسمك مُقترنًا بالله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، فيكون عدو الله عدوًا لك، ويكون حبيب الله حبيبًا لك، نعمةٌ عظيمة لأنك تعادي وتوالي فيه ولوجهه عَزَّوَجَلَّ.

ومَن هم أعداء الله؟

قال تعالى: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ٨٢ ﴾ [المائدة: ٨٢].

نعم! هؤلاء هم أعدى أعداء الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ هؤلاء الذي يجب أن يُعاديهم المؤمن، وهذا ما بينه الله جَلَّجَلَالُهُ بقوله: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ

ﭐلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [المجادلة: ٢٢].

فمَهْمَا كانت قرابتهم، فإنهم إن كانوا مؤمنين فلا بُدَّ أن يُنابذوهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [المائدة: ٨١].

لا يمكن أبدًا، فاليهود والنصارى والمشركون الذين يكيدون لدين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ويريدون أن يُطمِسوا ويُطفِئوا نورَ الله بأفواههم، لا يمكن أن يكونوا لنا أحبَّة ولا أن نودَّهم، بل لا بُدَّ أن نُعادِيَهم ونُبغِضَهم بكل أنواع البُغضِ ابتداءً مِن الجهاد وانتهاءً بكراهية القلب.

إنَّه لا يَصِح للمؤمن دينٌ إلاَّ بمُوالاةِ أهل التوحيد، ومُعاداةِ أهل الكفر والضلال والبَراء منهم، إنها قضيَّة خطيرة، قضيَّة إيمانٍ وكفرٍ؛ كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [المائدة: ٥١].

وكـم يَعتصِـر القلـبُ كمـدًا وغيظًا علـى غياب هـذا المفهوم الضخم في حياة كثيرٍ مِن المسـلمين في هذا العصرِ الذي اختلَطت فيـه المفاهيـم، وتبدَّلـت فيـه المعاييـر، وانقلَبـت فيـه الموازيـن، وانتكسَـت فيـه القلوب، فصار الـولاء والحبُّ لأعـداء الله تعالى، ووضَع كثيرٌ مِن المسـلمين أيديهم في أيـدي الكافرين، ومَنحوهم غايـة المحبَّة والمـودَّة، والمناصرة والمـوالاة، ودافَعوا عنهم وعن مناهجهم وأفكارهم وقوانينهم.

فـي الوقت الـذي خذَلوا فيه أهـل التوحيد والإيمـان، وأخيرًا زاد الطيـن بِلَّـة ما يَهـذي به الجاهلون السـاذجون -ممَّن يَنتسـبون إلى الإسـلام- مِـن دعوى التقريب بيـن الأديان الثلاثة: الإسـلام، والنصرانيَّـة، واليهوديـة، تحـت أُكذُوبـة: «**الديـن للـه، والوطـن للجميع**»، مع عِلمهم أنَّ اليهودَ قد حرَّفوا التوراة، وأنَّ النصارى قد بدَّلوا الإنجيل، فلا حول ولا قوة إلاَّ بالله العلي العظيم.

انظُـر وتأمَّـل فـي كلمـة ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ لـم يُذكَـر مَـن الـذي غضِبَ عليهم! في الأولى قـال تعالى: (أَنْعَمْتَ) فذكر الفاعل وهـو الله المُنعِـم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، أمَّا هنا مع هؤلاء لـم يذكر الفاعل! لماذا؟ لأنهم بسـبب ما جاءوا به مِـن الجرائم والفظائع في حق الله

وحق أنبيائـه وملائكته وكتبه؛ غضِبَ عليهـم الله، وغضِبتْ عليهم الملائكة، وغَضِبَ عليهم المؤمنون، فينالهم الغضب مِن كل شيء لبشـاعةِ أفعالِهم ولذلك قـال تعالـى: ﴿ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ وهذه ليست خاصَّة باليهود فقط، بل كل مَن فعل مثلهم وتشبَّه بهم ورَضي عنهم ينال ما نالوه مِن الغضب.

فمشكلة المغضوب عليهم؛ أنهم عرفوا طريق الهداية ولكنهم لم يسلكوه، وأصرُّوا على عدم السيْر فيه والعمل بمقتضاه.

أمَّا «الضالين» فهم التائهون الحائرون الذين لم يعرفوا الطريق فبالتالي لم يسلكوه.

وهُم النَّصارى ضلُّوا الطريق المُستقيم؛ لأنَّهم عبدَوا الله على جهل، مُتبِّعين في عباداتهم أهواءَهم، مُبتدعين في دينهم ما لم يأذن اللـهُ به، قائلين على ربّهم مـا ليس لهم به علم؛ فكانوا ضُلّالًا لأنَّهم ضيَّعوا ما أنزل الله إليهم مِن العلم، ولم يسترشـدوا به، وعبدَوا الله بأهوائهم، وغلوا في دينهـم، واتّخذوا أحبارَهم ورُهبانهم أربابًا مِن دون الله؛ بطاعتهم فيما يُشـرِّعون لهم مِن العبادات، وفي تحريم ما أحلَّ الله، وتحليل ما حرَّم الله؛ فضلُّوا بذلك ضلالًا بعيدًا.

وهنا سؤال: لِم قُدم المغضوب عليهم على الضالين؟

قال الإمام ابن القيم في تقديم المغضوب عليهم على الضالين وجوه:

أحدها:

أنهم متقدمون عليهم بالزمان.

الثاني:

أنهـم كانوا هم الذين يلون النبي مِن أهـل الكتابين فإنهم كانوا جيرانـه في المدينة، والنصـارى كانت ديارهم نائية عنه، ولهذا تجد خطـاب اليهـود والكلام معهم فـي القرآن الكريم أكثـر مِن خطاب النصـارى، كما في سـورة البقـرة والمائدة وآل عمـران وغيرها مِن السور.

الثالث:

أن اليهـود أغلظ كفرًا مِن النصارى، ولهذا كان الغضب أخص بهم واللعنة والعقوبة، فإن كفرهم عن عناد وبغي كما تقدم، فالتحذير مِن سبيلهم والبعد منها أحق وأهم بالتقديم، وليس عقوبة مِن جهل كعقوبة مِن علم.

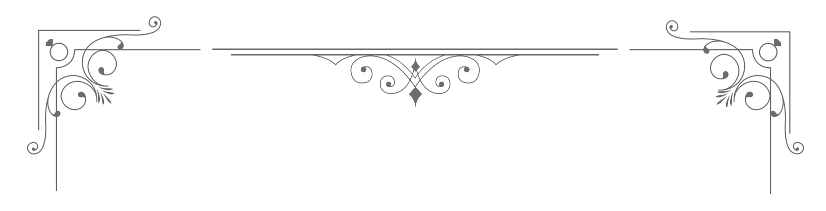
الرابع:

وهو أحسنُها أنَّه تقدم ذكر المنعم عليهم والغضب ضد الإنعام، والسورة هي السبعُ المثاني التي يُذكَر فيها الشيء ومقابله، فذكر المغضوب عليهم مع المُنعَمِ عليهم فيه مِن الازدواج والمقابلة ما ليس في تقديم الضالين، فقولك: «النَّاس مُنعَمٌ عليه ومغضوبٌ عليه فكُن مِن المُنعَمِ عليهم»، أحسنُ مِن قولك: «مُنْعَمٌ عليه وضالٌّ»[1].



---

(١) بدائع الفوائد.



الوصايا الواضحة من سورة الفاتحة

① ابدأْ حياتَك كلَّها مُستعينًا باسم الله؛ تنعم بمعيَّةِ الله.

② الهجْ بالحمْد لله على كُلِّ حال، قولًا وعملًا، والثناء على الله بما هو أهلُه.

③ تربيةُ اللهِ لك تستوجِبُ عُبُوديتَك له.

④ أكثِر مِن ذكرِكَ لله بأسمائه وصفاتِه؛ يذكُرُكَ باسمِك وصِفاتِك.

⑤ ارحمْ غيرَك مِن المخلوقات، حتى تنال رحمةَ الرحمن الرحيم.

⑥ إيَّاك والقنوط واليأس مِن رحمةِ اللهِ التي وسِعتْ كل شيء.

⑦ قوَّةُ استعانتِك بالله تقودُك إلى قوَّةِ القلبِ في العبادَةِ لله.

⑧ أكثِر مِن الأعمال الصالحة التي تنفعك يوم الحساب حتى تنجو مِن العِقاب.

⑨ المُلْكُ الحقيقي الأبدي في الدُّنيا والآخرة؛ إنما هو لله.

⑩ افعلْ كل ما يُحِبُّه اللهُ ويرضاه؛ تكُن مِن خيرِ خلقِ الله.

⑪ ادفَعْ الرياءَ بالإخلاص لله، وادفَعْ الكِبرَ بالافتقار بين يدي الله.

⑫ ناجي بها ربَّك بالغداةِ والعَشيّ، لِتفُز بالنَّعيمِ الأبديِّ.

⑬ اجعلهَا حلقةَ الوصلِ بينك وبين الله، وواصِل بها السَّير إلى الله.

⑭ أقبِل عليها عند المرض بيقين؛ تشفيك بإذن ربِّ العالمين.

⑮ حقق دائمًا العبوديَّة لله؛ لتسعد السَّعادة الأبديَّة في رِضاه.

⑯ سَل اللهَ الهدايةَ حتى النهاية والثبات حتى الممات.

⑰ اعلم أن حاجتَك إلى الهداية أعظم مِن الحاجة إلى النصر والرزق.

⑱ اثبتْ على طريقِ الحقّ واحذر الوقوع في مزالقِ الضلال.

⑲ في قولك (اهدنا) دعوة لِتتذكَّر إخوةً لك في الله في مشارق الأرض ومغاربها.

⑳ اعتنِ جيدًا بالعبادات القلبيَّة مِن استعانةٍ وحُبٍّ ورجاءٍ وخوفٍ وتوكل.

㉑ المداومة على الشكر على جميع النِعَمِ التي أنعمَ اللهُ بها

علينا مِن خلال حُسن التعبُّد لله، فهو سبب لدوام النِعَم والتثبيت والهداية.

٢٢ لِتَكُن سورة الفاتحة نورًا لك في ظلمات الحياة، وفتحًا لك لمغاليق الدروب.

٢٣ اعلَم أنَّك بقراءتها والتخلُّق بحقائقها أصبحتَ عظيمًا عند الله لأنها أعظم سورة في القرآن.

٢٤ تذكَّر أن المُنعِم هو الله تعالى وحْدَه؛ والنعمة فضلٌ مِن الله تعالى، فاشكُره عليها دائمًا.

٢٥ التحرُّر مِن جميع المعبوداتِ الباطلة، وإفرادُ اللهِ وحده بالعبادة.

٢٦ الزمْ الصحبة الصالحة واقتدِ بأصحاب الصراط المُستقيم؛ تكُن مِن الفائزين.

٢٧ افتح بها علاقة جديدة صادقة مع الله ليفتح لك بها مغاليق الحياة.

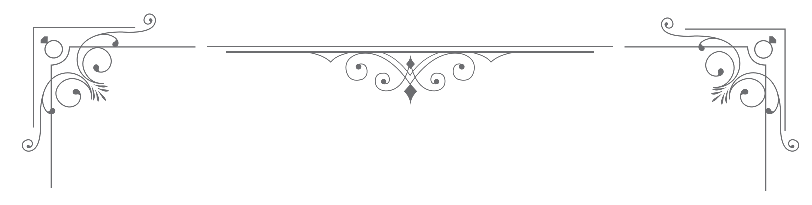
٢٨ لا تتشبَّه باليهود والنَّصارى حتى لا تُحشرَ معهم وتنالَ نفس مصيرِهم.

٢٩ تفويـض الأمر كله لله تعالـى لأنه المُتصرف والعالِم بشـئون خلقِه.

٣٠ احرص على إتقان سورة الفاتحة رِوايةً ودِرايةً ورِعايةً لأنها لا تصح الصلاة إلَّا بها.

٣١ إنَّ تكـرار الفاتحـة فـي ركعـات الصلاة فيـه دلالة علـى كثرةِ لزومِك لها والوقوفِ عند معانيها، فقِف وتدبَّر ثم أبصِر وتبحَّر.





نهايةُ الرحلة

الآن يتضح بجلاء لكل قارئ للفاتحة ومُتدبّر لها ومُتأمّل فيها؛ أن هـذه السـورة المُعجِـزة كادت أو تكون قد اشـتملت على الدين كلِّه، مما جعلها في أوجزِ ألفاظ، وأسـلَسِ أسـلوب، وأدقِ عبارات تُذكـر القلبَ في أقل وقـتٍ بمعَانٍ جمَّة يحتاجُهـا القلبُ في طريقِه وسيْره إلى الله.

قال أحد السلف:

إنَّ اللـه جمع الكتب المُنزَّلة في القرآن، وجمع علم القرآن في المُفصَّل -من سورة ق إلى نهاية سورة الناس- وجمع علم المُفصَّل في فاتحة الكتاب، وهي سـرُّ القرآن، وجمع علم فاتحة الكتاب في سرِّها في قوله تعالى:

﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾.

لذلـك كله فرض الله قراءتها في كل ركعة وحَكم ببطلان كل صلاة لا تقرأ فيها أم القرآن.

فتأمَّل في سـورة الفاتحة التي هي الدُّرةُ الفريدة في المعجزات السـماويَّة، وقطعـةٌ رائعـة مِـن القِطَـع البيانيَّـة لـو اجتمـع أذكيـاءُ العالَـم، وأدباءُ الأمـم، وعلماء النَّفـس، وقادةُ الإصـلاح، وزعماء الروحانيَّـة؛ علـى أن يضعـوا صيغةً واحـدةً يتفق عليها البشـر على اختلاف طبقاتهم، وتنوُّع حاجاتهم، وتشـتُّت خواطرهم، يتقدمون بهـا أمام ربهم ويتعبَّـدُون بها في صلواتهم تُعبِّـر عمَّا في ضمائرهم ومشاعرهم، وتَفِي بحاجاتهم وأغراضهم لَمَا جاءوا بأحسنِ منها أو مثلها[1].

فاعلم أخي في الله -علمني اللهُ وإيَّاك- أن هناك موضوعين رئيسيَّين في سورة الفاتحة وهما (العلم والعمل).

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ ﴾

هذا هو العلم، العلم بمَن؟ العلمُ بالله.

(١) أبو الحسن الندوي، بتصرف.

﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾

وهذا هو العمل، العمل بماذا؟ العملُ بمُقتضى هذا العلم.

فالسُّورة ابتدأت بالعلم، وانتهت بالعمَل، وهذا هو دينُ الإسلام (علمٌ وعمل) فإذا قادك العلمُ إلى العمل، **فأنت مُسلم على الصراط المستقيم**، تدخُل في ظلال (أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ).

وإذا قادك العلم إلى الغرور وترك العمل، فأنتَ مغضوبٌ عليك ولك نصيب مِن وصف (ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ).

وإذا عمِلتَ دون علم وهداية ومعرفة، فأنت ضالٌ تائهٌ حيران فتستحق وصف (ٱلضَّآلِّينَ).

وفي الخِتام: أبرأُ مِن حولي وقوتي فقد تم بحمد الله وحوله وقوته ما تيسَّر لي كتابته وجمعه وسعيتُ في ترتيبه وتوضيحه وتقريره ولا أدَّعي أنَّني جئتُ فيه بما لم يأتِ به الأوائلُ، وقد راعيْتُ في هذا الكتاب أن يكون فيه مِن تزكية النفوس وصلاح القلوب وزيادة الإيمان؛ حظٌ وفيرٌ لقارئه، وأن يكون فيه مِن تصحيح المفاهيم وتوضيح المصطلحات؛ إشاراتٌ لمَن رام ذلك واعيًا له ومُتنبِّهًا.

ولمَّا كان هذا الكتاب الذي بين يديك، تدبُّرًا للفاتحة واستخراجًا للمعاني الجمَّة والوصايا الجامعة؛ وكان على المسلم أن يستفيدَ مِن هـذا كله على قدر استطاعته؛ فإني أقترح على القارئ الكريم بعد فراغه مِن القراءة، أن يُعيد قراءة الفاتحة بقلبٍ جديد، وفهْمٍ سديد، ثم يستشعر ما في هذه الفاتحة مِن معانٍ ومناسبات، وفوائدٍ وعظات، وهداياتٍ ووصايا واضحات، ويتعهد نفسَه وقلبَه بتطبيقِها والعملِ بها في دُنيا النَّاس، حتى يرسخَ ما قرأه في عقلِه، ويحسَّ به في قلبِه، ويتلذَّذ به في مُناجاتِه لربِّه، وهكذا لتتجدَّدَ معاني الفاتحة التي يكرِّرُها العبدُ المسلم في حياته أكثر مما يُردِّدُ اسمَه في كثيرٍ مِن الأحيان.

ومهما بذلتُ مِن جهد في هـذا الكتاب فلا بُدَّ وأن يكون للتقصير فيه نصيب، فمَن رأى عيبًا أو وجدَ خللًا، فليُصلِحَ العمل وليسُدَّ الخلل.

واللهَ أسألُ أن يكون هذا العمل صالحًا، ولوجهه خالصًا، وأن يكون عونًا على تدبُّر كتابه وأن يكون دافعًا للدعوة إليه وأن يقرأه مَن يقرؤه ثم يُعلِّمه لغيره بعد ما يعمل به، ويحثُّ غيرَه أن يعملَ به، فإنَّ خيرَ العلمِ ما صدَّقَه العمل.

وأرجـو مِن أخـي القارئ دعوةً بظهر الغيْـب، أن يعفوَ اللهُ عن زلَّاتـي ويغفرَ لـي خطيئاتي وعثراتـي، وألَّا يجعل حظِّـي مِن قولي لفظـي، وأن يغفـرَ لي جَـدِّي وهزلـي وخطئي وعمْـدي وكل ذلك عندي، ولوالديَّ وللمؤمنين، وأن يهديَنا جميعًا صراطَه المُسـتقيم، وأسألُه سُبحانَه أن يُأدِّبَنا بأدَبِ القرآن، ويرزُقنا فهْمَ القرآن، ويُسعِدَنا بسعادةِ القرآن، ويُشرِّفَنا بشرَف القرآن، ويُطهِّرَ قلوبنَا بالقرآن، ويُنوِّرَ حياتَنا وبيوتَنا وقبورَنا بالقرآن، واجعلنا اللهُمَّ مِن أهل القرآن الذين هـم أهلُك وخاصَّتُك يـا أرحمَ الرَّاحمين، وارزقنا منـه العلمَ النَّافِعَ والعمـلَ الصالـح إنَّـك أنـتَ الرحمن الرحيـم، وصَلَّى اللهُ وسـلَّمَ وبارَكَ عَلَى نبيِّنا مُحمَّدٍ وعلى آلِه وصَحبِه أجمعين والحمدُ لله ربِّ العالمين.



اختبر فهمك لسورة الفاتحة

نموذج اختبار لمعرفة مدى فهمك لسورة الفاتحة، إجابتك عن هذه الأسئلة الآتية يُحدد قدر استفادتك من هذا الكتاب الذي بين يديك

① لماذا افتتحت سورة الفاتحة بالحمد، ولماذا الحمد ولم يقل الشكر؟

....

....

....

....

....

② لماذا سميت بالسبع المثاني؟

....

....

....

....

....

③ لم التعبير بيوم الدين ولم يقل «يوم القيامة»؟

....

....

....

....

....

④ لماذا خص اليهود بوصف المغضوب عليهم والنصارى بالضالين؟

....

....

....

....

....

⑤ ما سر تقديم «إياك» على «نعبد»؟

....

....

....

....

....

⑥ ما سر بدأ بـ «الرحمن الرحيم» بعد «رب العالمين»؟

....

....

....

....

....

⑦ الاستعانة من العبادة فما سبب تخصيصها؟

....

....

....

....

....

⑧ اذكر خمسة أسماء من أسماء السورة، وما الاستفادة من تعدد الأسماء؟

....

....

....

....

....

⑨ هل ربُّنا يملِكُ يوم الدين فقط، وضِّح؟

....

....

....

....

....

⑩ لماذا قدَّم العبادة على الاستعانة؟

....

....

....

....

....

⑪ ما هو الصراط المستقيم وما هي عوامل الثبات عليه؟

....

....

....

....

....

⑫ لماذا لم يقل «المنعم عليهم» كما قال «المغضوب عليهم»؟

....

....

....

....

....

⑬ من هم الذين أنعم الله عليهم؟ ولماذا نُسِبتْ النعمة من الله لهم مع أن الله ينعم على الجميع؟

....

....

....

....

....

⑭ لماذا أتت كلمة «أنعمت» بالماضي؟

....

....

....

....

....

⑮ لماذا قدَّم المغضوب عليهم على الضالين؟

....

....

....

....

....

⑯ اشتملت السورة على أدب من آداب الدعاء، وضِّح ذلك؟

....

....

....

....

....

⑰ لماذا سميت الفاتحة بأم الكتاب وأم القران؟

....

....

....

....

....

⑱ لماذا سميت الفاتحة بالكافية؟

....

....

....

....

....

⑲ لماذا قراءة الفاتحة ركن من أركان الصلاة؟

....

....

....

....

....

⑳ لماذا جاءت «اهدنا» للجمع ولم يعبر عنها للفرد اهدني؟

....

....

....

....

....

(٢١) لماذا نسأل الله الهداية أكثر مِن مرة في اليوم مع أننا على الطريق الحق وهو الإسلام؟

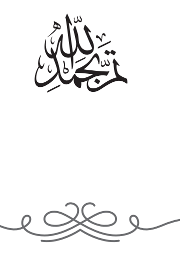
....

....

....

....

....





فهرس الموضوعات

